

Gaylord
GAYLAMOUNT®
PAMPHLET BINDER
Syracuse, N.Y.
Stockton, Calif.

B
741
Q98
v.4
Pt. 1

CORNELL
UNIVERSITY
LIBRARY





فلاسفة العرب

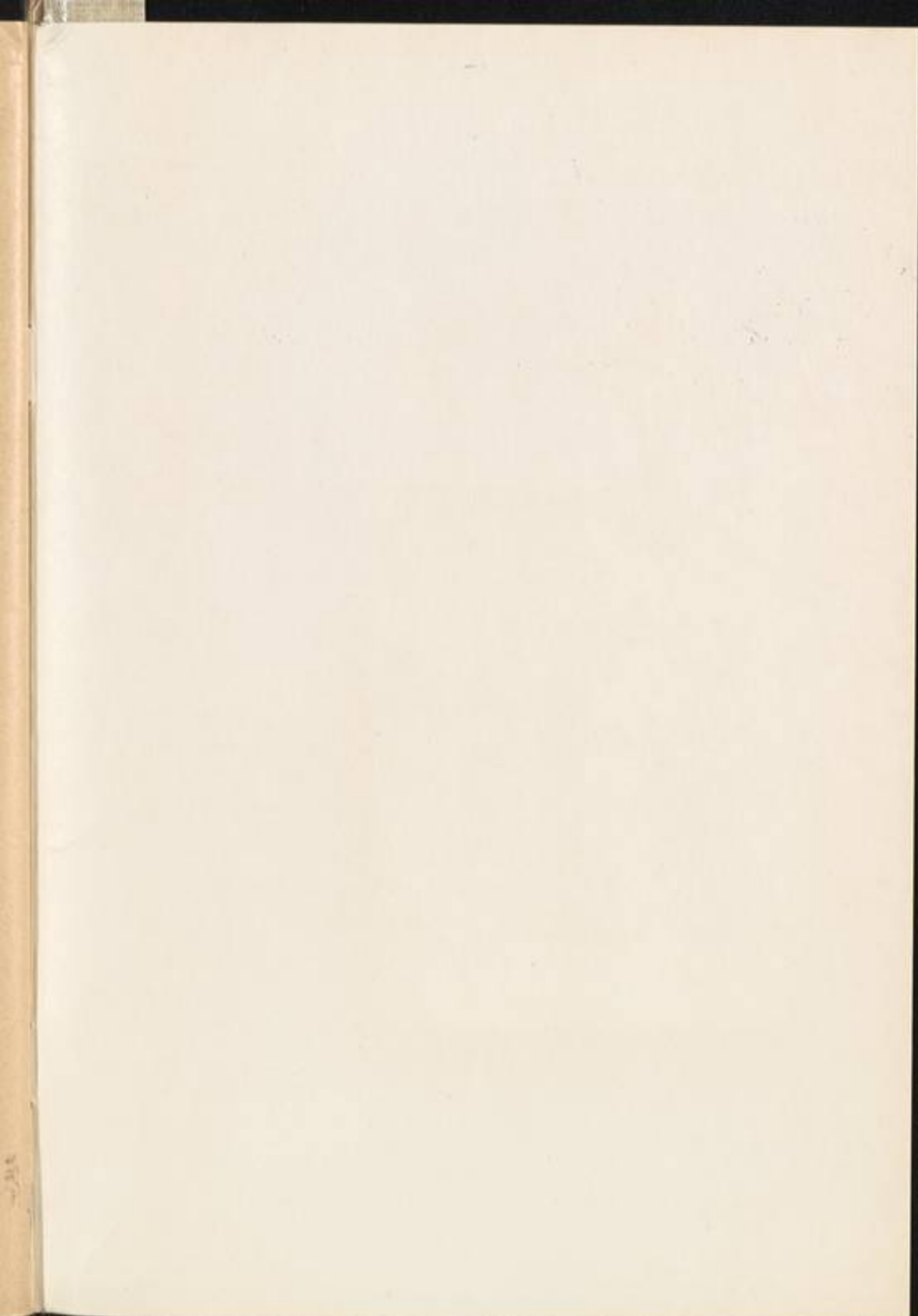


الغزالي

البداء

الجزء الاول

منشورات الطبعة الكاشوليكية - بيروت



الأب يوحنا قمر

استاذ الفلسفة القبطية في جامعة القديس يوسف

الغزالي

ربا



دراسات - مختارات

طبعة ثالثة منقحة

الجزء الاول

منشورات المطبعة الكاثوليكية

بيروت

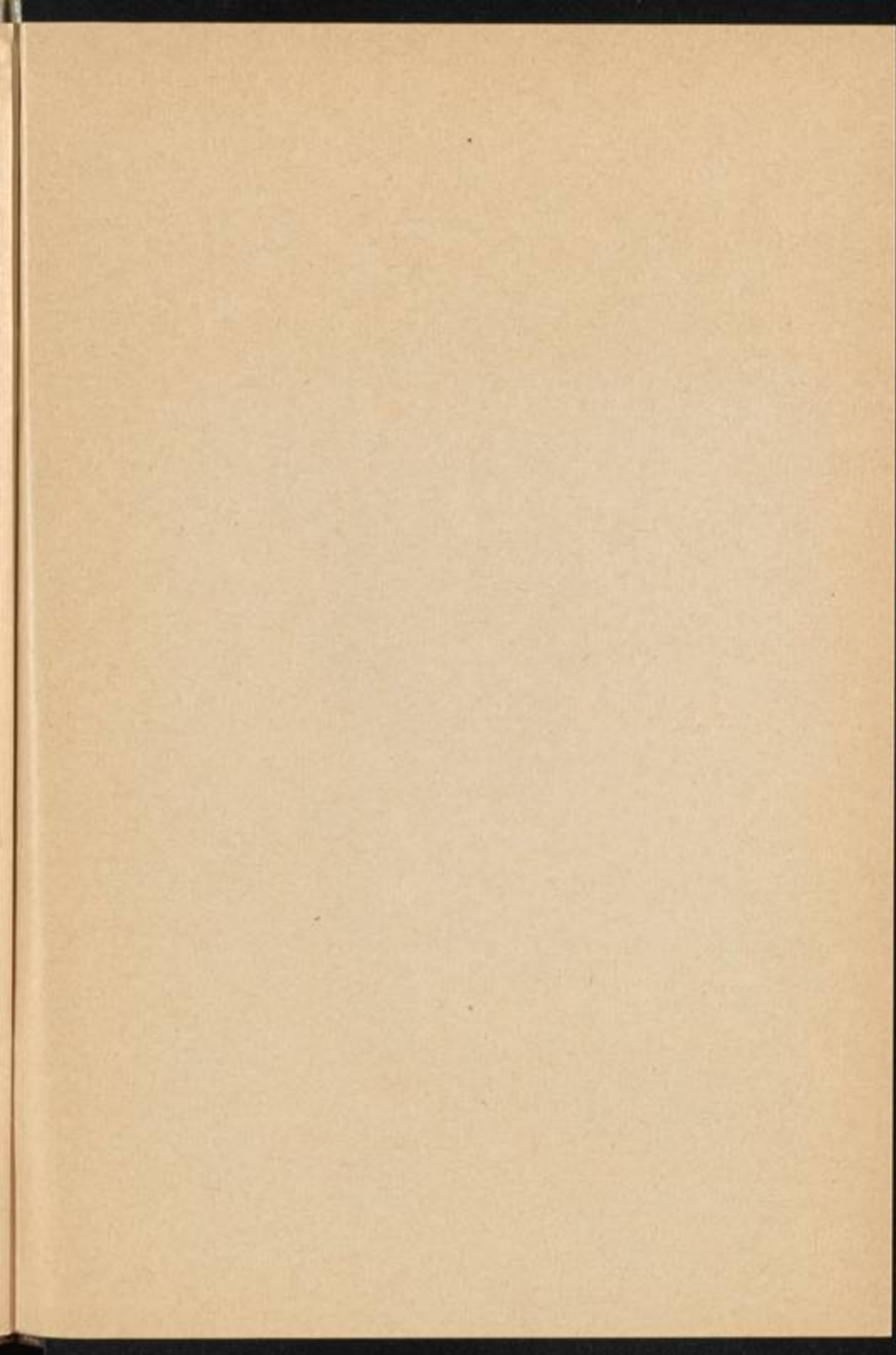
B
741
Q98
4.4
H.1

B 92 5137

X
V.P.K



الفزالي



الغزالي

٤٥٠ - ٥٠٥ هـ

١٠٥٩ - ١١١١ م

ترجمته

في غزالة ، وهي قرية من اعمال طوس ، احدى مدن خراسان ، ولد ابو حامد محمد ... حجة الاسلام ، واليها انتسب^(١) . وكان ابوه فقيراً يعيش من غزل الصوف ، وكان محباً للعلم يحضر مجالس الفقهاء ، والوعاظ ، ويتمنى على الله ان يرزقه بنين كهؤلاء . ورزقه الله ما اشتهى ، فكان له محمد هذا ، اشهر فقهاء عصره ، واحمد اخوه ، وكان واعظاً يزدهم عليه الناس . وبني الغزالي باليتيم ، فقدت اباه صغيراً . ويتم بعضهم نعمة ، لانه اعتماد على النفس ، وسير الى غير آفاق . ويتم الغزالي وضعه في رعاية وصي صوفي . ورعى هذا الصوفي صداقة الوالد ، فاعتنى بالصبي جسداً وروحاً ، والقي فيه بذوراً طيبة ، سوف تثبت غرساً يانعاً ، وتتفتق براعمه وازراراً . على ان هذا الصوفي كان ضيق الخال ، وما خلفه الوالد من مال

(١) قال ابو سعد عبد الكريم السمعاني - وقد ولد في طوس نفسها ، بعد وفاة الغزالي بستين ، وكتب كتاباً شهيراً في الالفاظ - ان اسم الغزالي مشتق من غزالة ، وهي قرية قريبة من طوس . وانا نعرف رجلاً آخر بهذا الاسم ، يدعى الغزالي الاكبر ، ربما كان عم الغزالي هذا او جده . واذا زاي الغزالي مخففة ، ولم يلقب بهذا الاسم لان اباه كان ينزل الصوف ، ناهيك عن ان غازل الصوف يدعى غزالياً لا غزالياً .

كان تزرأ يسيراً ، فاجأ الولد الى مدرسة خيرية ، يلقن فيها العلم ،
وينال القوت . ولسنا ندري في اي عمر ترك وصيه الصوفي ، ولا كم
اقام في مدرسته تلك .

على انا نعلم - ونعلم من الغزالي نفسه - انه كان يحس ، منذ
صباه ، بفضول عقلي غريب ، يدفعه الى التهجيم على كل مشكلة ،
والتفحص عن عقيدة كل فرقة . وان هذا الفضول لثقة بالنفس ، ووقار
في العقل ، وسر كل مفاجأة .

وانه هذا التطلع العقلي قاد الغزالي الى نيسابور ، الى مدرستها
النظامية ، حيث كان يدرس امام الحرمين ، ضياء الدين الجويني .
واخذ الغزالي عن استاذة الفقه والمنطق ، واخذ عنه جرأة في النظر ،
وخروجاً عن مسالك التقليد . وكان الغزالي تلميذاً متفوقاً ، وكان تفوقه
يدفعه الى العجب بالنفس ، وكان امام الحرمين يتعجب لذلك . على ان
الاستاذ كان افظن من ان يتجاهل ذكاه ، تلميذه ، او يظهر الغيرة منه ، بل
كان يتبجح به في الظاهر ، ويقول عنه اذا وصفه : « الغزالي بحر مفيد . »
وتوت امام الحرمين سنة ٥١٧٨ = ١٠٨٥ م ، ويرى الغزالي نفسه ضائعاً وحيداً .
على انه قد اصبح شاباً ، وشاباً ناضجاً ، له من العلم ما يجابه به
الاعلام ، ومن الفصاحة والذكا . ما لا يحده طوح .

وكان في العراق وزير سلجوقي كبير ، غيور على العالم واهله ، غيور
على اهل الصلاح ، يعاتبه سلطانه ملكشاه على ما ينفقه في سبيل
المدارس ، فيجيبه من كتاب : « اناقت لك جيشاً يسمى جيش الليل ،
اذا نامت جيوشك ليلاً ، قامت جيوش الليل على اقدامهم ، صفوفاً بين
يدي ربهم ، فارسلوا دموعهم ، واطلقوا السنتهم ، ومدوا الى الله اكنفهم
بالدعاء . لك وجليوشك . فانت وجليوشك في خفارتهم تعيشون ، وبدعائهم
تيتون ، وببركاتهم تظرون وترزقون . »

وأتى الغزالي نظام الملك هذا ، واختلط باهل العلم من مجلسه ،
واظهر في مناظرة الأئمة تفوقاً وبراعة . وظلّ في ظل نظام الملك اعواماً
سنة ، يريه فصاحة وبلاغة ، ويريه مودة واخلاصاً ، حتى ارسله استاذاً
الى مدرسة بغداد النظامية ، سنة ٥٤٨٦ = ١٠٩١ م .

وكانت المدارس النظامية تلك وسيلة لتأييد السنة ونفوذ السلاجقة ،
كما كان الازهر في مصر وسيلة لتأييد الشيعة ونفوذ الفاطميين . وإذا
كان على الغزالي ان يناصر السلطان القائم ضد كل دعوة علوية ، وان
يدافع عن اراء اهل السنة ضد المبتدعة .

وعلم الغزالي في بغداد مدة اربع سنوات ، مرّ اثناها بمجالات نفسية
عنيقة ، سنأتي على ذكرها . وقد انتهى به الامر الى ترك التدريس في
بغداد ، والتجول من بلاد الى بلاد . قال الغزالي في اماكن من المنقذ :
« ففارقت بغداد . . . ثم دخلت الشام ، واقت به قريباً من سنتين ،
لا شغل لي الا الغزلة والحلوة . . . فكنت اعتكف مدة في مسجد
دمشق ، اصعد منارة المسجد كل النهار ، واغلق بابها على نفسي .

« ثم تحركت في داعية الحج . . . فسرت الى الحجاز .
« ثم جذبتني الهمم ، ودعوات الاطفال الى الوطن ، فعاودته بعد
ان كنت ابعد الخلق عن الرجوع اليه . فأثرت الغزلة ايضاً ، حرصاً على
الحلوة ، وتصفية القلب المذكور . وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال ،
وضرورات المعاش ، تغير في وجه المراد ، وتشوش صفوة الحلوة . وكان
لا يصفو الحال الا في اوقات متفرقة ، لكنني مع ذلك لا اقطع طمعي
منها ، فتدفعني عنها العوائق ، واعدو اليها . . .

« ثم اني لما واظبت على الغزلة والحلوة ، قريباً من عشر سنين . . .
قدّر الله تعالى ان حرك داعية سلطان الوقت من نفسه ، لا بتحريك
من خارج ، فامر امر الزام بالنهوض الى نيسابور . . . وبلغ الاّزام حدّاً

كان ينتهي ، لو اصررت على الخلاف ، الى حد الوحشة^(١) . . .
 « ويسر الله الحركة الى نيسابور ، للقيام بهذا المهم ، في ذي القعدة
 سنة تسع وتسعين واربعمئة . وكان الخروج من بغداد في ذي القعدة سنة
 ثمان وثمانين واربعمئة . »

يقص علينا الغزالي هذه القصة ، وهو استاذ في نيسابور ، « وقد
 اناف السن على الحسين » ، اي بعد سنة ٥٠٠ = ١١٠٦ م . ولا
 نظنه كتب المتخذ بعد هذه السنة بكثير ، ولا انه درس طويلاً بعد
 كتابة المتخذ ، لاننا نعلم انه توفي سنة ٥٠٥ ، وانه عاد الى طوس في
 اواخر حياته ، واتخذ الى جانب داره مدرسة للفقهاء ، وخانقاه للصوفية .
 وامل مصرع فخر الملك ، سنة ٥٠٠ ، قد عجل في تركه التدريس في
 نيسابور ، ولعله اعتزل نهائياً سنة ٥٠١ او ٥٠٢ على ابعد تقدير .

=

بقي ان نلم المأماً بنفسية الغزالي .
 لقد كان الغزالي عقلاً ذكياً ، وقد ادرك من نفسه تلك الهبة ،
 فاذا به كثير التطلع ، جم الفضول ، يتهجم على كل مسألة ، ويجادل
 في كل معضلة ، يطالع كل كتاب ، ويصنف في كل عقيدة ، وما اكثر
 ما طالع الغزالي وآف ، وما اكثر ما ناظر وبرز الاقران .
 وقد ادى ذلك بالغزالي الى المباهاة بذكائه ، والعجب بالنفس .
 الا نراه ينظر الى شبهات عصره ، وضلالات زمانه ، فيجد افضاحها

(١) ان هذا السلطان هو سنجر ، الذي ولي خراسان : نياية عن اخيه بركياروق ،
 سنة ٥٢٩٠ = ١٠٩٦ م . وجاء في طبقات السافية الكبرى ان فخر الملك ، وزير
 سنجر ، وابن نظام الملك ، هو الذي دعا الغزالي الى التدريس ، « والحق عليه كل
 الاحلاح ، وشدد في الاقتراح ، الى ان اجاب . » ومن الطبيعي ان يلح ابن نظام الملك
 على صديق ابيه ، وقد اخط باسم السلطان .

ايسر من شربة ماء...^{١١} ؟ ألا يحدثنا ، حين يحدثنا عن تركه التدريس في بغداد ، عن الحاح الولاية عليه بالبقاء ، ولوم أئمة العراق له ، وعن تعليل ذلك بقولهم : « هذا امر سماوي ، وليس له سبب الا عين اصابت اهل الاسلام ، وزمرة العلم^{١٢} ؟ ثم الا يعود الى التدريس في نيسابور ، لان سلطاناً الح ، وارباب قلوب نصحوا ، وصالحين رأوا منامات ، والها وعد « باحيا . دينه على رأس كل مئة .^{١٣} » ؟

هو الشعور بذكائه ، وهي شهرة صلاحه ، دفعاه الى ان يباهي ، وان ينشر ما يؤثر الحيا . طيه . على انك قد تلتطف من دهشتك ، اذا علمت ان صالحين كثيرين بأهوا بما باهي به الغزالي ، وانه دائب على اصلاح نفسه ، ناسب الى الله كل فضل ، مؤمن ان لا حول ولا قوة الا به : « اني لم اتحرك ، وابكنه حركني ، واني لم اعمل ، ولكنني استعملني ، فاسأله ان يصلحني اولاً ، ثم يصلح بي ويهديني .^{١٤} »

وان اهل عصره رأوا فيه ما رأى في نفسه ، فرثاه الايبوردي من

قصيدة :

مضى ، واعظم مفقود فجعت به من لا نظير له في الناس يخلفه !

(١) المختارات : ص ٤٨

(٢) المختارات : ص ٤٣

(٣) المختارات : ص ٤٩

(٤) المختارات : ص ٥٠

ارأوه

الغزالي شخصية غنية الروح ، واسعة الاطلاع ، كثيرة الانتاج ، متشعبة المناحي .

وحياة الغزالي شطران متباينان من وجوه ، مشتركان في اشياء ، يفصلهما انقلاب عميق ، واهتداء الى التصوف .

وعقل الغزالي كثير التطلع ، نفور من الانقياد ، نزوع الى اليقين ، عرضة للحيرة والقلق ، هدف لكل مهالك الذكاء .

واذاً ليس من اليسير ان تجمع ما تبدد ، وتلازم ما تشعب ، ان تبين ما تبدل ولا تذهل عما استمر ، ان تتبع تطور الفكرة وتجد حلاً للمتناقضات .

وانا قد رأينا ان نتخذ كتاب المنقذ اساساً ، فنعرض تطور فكرة الغزالي كما عرضها هو لنا ، ثم ننقد هذه الرواية مظهرين ما فيها من وهن ومن تناقض ، وننتهي برأي يشرح لنا كتاب المنقذ ، بل قد يشرح باقي كتبه ايضاً .

١ - رواية المنقذ

ادبانه ومذاهب وتقليد : السك في الابعام:

رأى الغزالي اختلاف الناس في الاديان ، واختلاف الائمة في المذاهب . وسلطان التقليد في اعتناق هذه وتلك ، ووافق ذلك منه عقلاً متطوعاً ذكياً ، وثقة بالنفس ، فاذا به حائر امام تضارب الاراء ، واذا به يتحرر من كل تقليد ، من الرضوخ لرأي امام او تعليم والد واستاذ ، ومن الركون الى ايمان موروث ، ليعود الى حقيقة الفطرة الاصلية ، ويسلك طريق الحق الخالص .

رأى الغزالي ذلك وهو في عنفوان الشباب لم يبلغ العشرين ، وخلع التقليد وانكسرت عليه العقائد الموروثة وهو قريب عهد بسن الصبا ، وجاوز الغزالي الحسين وما شفى النفس من فحص العقائد والفرق !

ما اليقين ؟

ولما كان الغزالي يبحث عن حق يطمئن اليه ، ويوقن فيه ، رأى ان يبدأ بتحديد العلم اليقيني . وقد حدده هكذا : « العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه امكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك . بل الامان من الخطأ ينبغي ان يكون مقارناً لليقين مقارنة لو تمدى باظهار بطلانه ، مثلاً، من يقب الحجر ذهباً، والعصا ثعباناً، لم يورث ذلك شكاً وانكاراً. »^(١)

الثق في الحس والعقل :

حدد الغزالي اليقين ، ثم شرع يبحث عنه في ما عنده من علوم ، فوجد نفسه « عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة ، الا في الحسيات والضروريات^(٢) » ، اي في ما يعرفه عن طريق الحس والعقل .

ويبحث الغزالي في معلومات الحس أولاً ، فراها خاطئة ، او عرضة للضلال : ألا زى الظل جامداً ، وهو متحرك ؟ ألا زى الكوكب صغيراً ، وهو اكبر من الارض ؟ واذاً لا ثقة بالحس ، ولا يقين في ما فعله عن طريقه !

(١) المختارات : ص ٢٢ - قال دأكرت ، في بحث مماثل : « لا اسلم بحقيقة ما لم تبد لي بوضوح ، ولا اشمل في احكامي الا ما ظهر لي بجلاء ودقة لا يبقى معها مجال للشك . »

(٢) المختارات : ص ٢٣

والعقل ما شأنه ؟

ان للعقل اوليات تبدو ثابتة ، من مثل « العشرة اكثر من الثلاثة ، والنفي والاثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً ، واجباً محالاً^(١) . » وكاد الغزالي يركن الى عقله ، لولا شبهات عرضت له : لقد كان يثق بالحس الى ان اتى حاكم العقل فكذبته ، فلعل وراء العقل حاكماً اخر ، اذا تجلّى ، كذبه وضلله ثم الا نعتقد في النوم اموراً ، وتظهر لنا اليقظة ضلالها ، فلم لا نكون في شبه نوم ، ويكون الموت يقظة وهم مخدوع ؟ ويدعي الصوفية انهم يشاهدون في احوالهم اموراً لا توافق ما يراه العقل ، افلا تكون الحالة الصوفية طريق الانسان الى الحق^(٢) .

عرضت الغزالي هذه الشبهات ، وخطرت هذه الحواطر ، ففقد الثقة بعقله ، بعد ان فقدها بجسده . ودام في شكه هذا قريباً من شهرين ، هو فيها « على مذهب السفطة ، بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال^(٣) . » وهكذا تطرق الغزالي من شك الى شك ، من الشك في ايمانه الى الشك في عقله ا

(١) المختارات : ص ٢٢

(٢) ان الغزالي يستقي شبهات شكه من الشكاك اليونان . وقد رد اناسيداموس هذه الشبهات الى عشر ، وهي تعود في جوهرها الى ان الحقيقة نسبية ، تتلف :
١ - حسب الحالات المختلفة من نوم ويقظة ، وصحة ومرض ، وصحو وسكر ، وجب وبنف . . .

ب - حسب المسافات والامكنة ، فنبذو السفينة البعيدة صبرة ثابتة ، حتى اذا اقربت بدت كبيرة متحركة ، وتبدو العصا منكسرة في الماء ، مستقيمة خارجه . . .
ج - باختلاف العادات والقوانين والاراء ، فالفرس يميزون ترويح الابناء من امهاتهم ، ويميز المصريون زواج الاخوة من اخواتهم ، ويمحظر القانون اليوناني كل ذلك .
واختلافات الاديان ومذاهب الفلاسفة مشهورة .

(٣) المختارات : ص ٢٤

الخروج من الشك في العقل :

حاول النزالي الخروج من شكه في عقله بدليل ، فلم يتيسر له ذلك ، وكيف يستقيم دليل والاوليات غير مسلم بها ؟
 ودام النزالي في شكه شهرين عادت بعدهما اليه الثقة بالاوليات العقلية ، لا بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر .
 على ان النزالي ، بعد ان يسهب في وصف هذا النور الباوي ، ينتهي فجأة بهذه النتيجة : « والمقصود من هذه الحكايات ان يُعمل كمال الجِد في الطلب حتى يُنتهى الى طلب ما لا يُطلب . فان الاوليات ليست مطلوبة ، فانها حاضرة ، والحاضر اذا طُلب فُقد واختفى » . وهذا شبه دليل عقلي خلاصته ان الاوليات هي اوضح شيء في نظر العقل ، فلا تحتاج الى دليل لاثبات صحتها ، بل لا يمكن ايجاد مثل هذا الدليل .

الخروج من الشك في الاعمال :

خرج النزالي من شكه في عقله ، فبقي ان يخرج من شكه في ايمانه ، وان يستقر على عقيدة ومذهب .
 وشرع النزالي فرأى ان الحق لا يتجاوز احدى فرق اربع : الكلام ، والفلسفة ، والباطنية ، والصوفية . فأخذ يستعرض هذه الفرق ، ويوجز تعاليمها ، وينقدها :

١ - الكلام :

اما الكلام فغاياته حفظ عقيدة اهل السنّة ، وحراستها عن تشويش اهل البدعة .

ويرى النزالي في الكلام نقصين : الاول هو اعتماده على مقدمات

تسلها من التقليد او من إجماع الامة ، او من مجرد القبول من القرآن والاحبار ، وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات . والثاني هو خوضه في استخراج مناقضات الحُصوم ، وتقصيره في البحث عن حقائق الامور ، وهذا لا يبدد ظلمات الحيرة او يشرح اختلافات الخلق . واذا الكلام لا يجوي الحق الشافي .

٢ - الفلسفة : كفر وبدع :

وانتقل الغزالي الى درس الفلسفة « بمجرد المطاعة ، من غير استعانة باستاذ^(١) » ، وفي اوقات محتاسة اثناء تدريسه في بغداد . واطلع على منتهى علومها « في اقل من سنتين^(٢) » ، ثم واطب على التفكير بها ، بعد فهمها ، « قريباً من سنة^(٣) » ، يعاودها ويردها حتى يتبين ما فيها من خداع وتلبيس^(٤) .

انتهى الغزالي من درس الفلاسفة فاذا هم اقسام ثلاثة : دهريون جحدوا الصانع ، وطبيعيون آمنوا بالله انما جحدوا خلود النفس ، والهيون - امثال سقراط وافلاطون وارسطو وابن سينا والفارابي - آمنوا بالله وخلود النفس ، انما كفروا في امور وأبدعوا في اخرى .

لا يجادل الغزالي الدهريين والطبيعيين ، لانهم زنادقة انكروا الايمان واليوم الآخر ، واصل الايمان هو الايمان بالله واليوم الآخر . اما الهيون فبعض عاومهم صحيحة او لا تتصل بالدين ، وبعضها - كالطبيعيات والالهيات - اتت بكفر وبدع . والاهيون كفروا في ثلاث

(١) المختارات : ص ٢٧

(٢) واذا استغرق بثه الفلسفة قريباً من ثلاث سنوات ، ولعله في السنتين الاوليين وضع كتاب « مقاصد الفلاسفة » ، ولعله في السنة الثالثة وضع كتاب « تحافت الفلاسفة » . وقد جاء في احدي المخطوطات ان كتاب التهافت قد تم في

اول سنة ٤٦٨٨ هـ = ١٠٩٥

مسائل : قالوا بقدوم العالم ، وانكروا حشر الاجسام ، ونفوا علم الله بالجزئيات . وقد وضع الغزالي كتاب « التهاوت » لابطال مذهبهم في ما اتوا من كفر ومن بدع .

٣ - الباطنية :

لم تنف الفلسفة بغرض الغزالي ، ولم ينكشف له عن طريق العقل كل معضل ، فانقل الى الباطنية .

والباطنية هذه رأت ان الاراء ابدأ متضاربة ، والعقول متنازعة ، فحكمت ببطلان العقل ، وقالت بضرورة امام معصوم يبت في الخلاف ، ويفصل في النزاع ، كي لا تفسد العقيدة ، ويلتبس الحق على الناس .

وأئمة الباطنية المعصومون سبعة اولهم علي ، وسابعهم اسماعيل (٦٦٢م) ابن جعفر الصادق . واسماعيل هذا حي لا يموت ، وغائب لا يرى ، قد بث في الناس دعاة يهدون ويرشدون . وان اختلف الدعاة في امر ، او اختلف عليهم مشكل ، عادوا الى الامام واسترشدوه .

ورأى الغزالي عجز العقل ، كما رأوا ، وضرورة الامام المعصوم ، انما لم يسلم بامام سوى النبي . اجل ان النبي ميت ، ولكن امام الباطنية غائب يستحيل الوصول اليه عند الحاجة . ثم ما علم هذا الامام ؟ واي خلاف ازال ؟ وعلي رأس الأئمة هل ازال الخلاف ام زاده وقواه ؟ وهل يستطيع امام ما عجز الانبياء انفسهم عنه ؟

٤ - الصوفية :

واتى دور الصوفية .

طالع الغزالي « قوت القلوب » لابي طالب المكي (٣٨٨م) = (٩٩٨) ، وكتب الحارث المحاسبي (٣٤٣م = ٨٥٧) ، وما بقي من الجنيدي

(٢٩٧٠=١٠٠٩) والشبلي (٥٣٣٤=٩٤٥)، والبسطامي (٥٢٦٤=٨٧٧)، وغيرهم من المشايخ، فإذا اخص خواص الصوفية « ما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات^(١) ». وإذا عليه ان يجي الحياة الصوفية، ويسلك الطريقة، ان يترك التدريس في بغداد، وما يجده من مال وجاه، وان يغادر جوه العائلي الدافئ، وما يغمره من حب الزوج والبنين، ويذهب زاهداً متأملاً سائحاً، كي يختبر الحالة الصوفية، وييدي حكماً صائباً فيها.

وهنا يحدثنا الغزالي عن نزاع داخلي عنيف، عن تردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة دام قريباً من ستة اشهر اولها رجب سنة ٥٤٨٨ = ١٠٩٥. ويخبرنا ان هذا التردد افضى به الى مرض بطلت معه قوة الهضم، وضعفت القوى، وعقل اللسان عن التدريس، وقطع الاطباء، طعمهم من العلاج.

وانتهى هذا التردد بان سهل الله على قلبه الزهد، سهل عليه الاعراض عن الجاه والمال والاولاد، فترك كل شيء، وغادر بغداد في ذي القعدة سنة ٥٤٨٨ = ١٠٩٥.

غادر الغزالي بغداد رغم الحاح الولاة بالبقاء، ولوم ائمة الدين له. وقد تظاهر بالذهاب الى مكة، وهو ينوي السفر الى الشام، حذراً من ان يطلع الخليفة وجملة الاصحاب على عزمه في المقام بالشام. سافر الغزالي الى الشام، حيث اقام سنتين، ثم قصد اورشليم والحجاز، مستكففاً على العزلة، ومجاهدة النفس، وتصفية القلب.

لسنا نعلم بالضبط كم اقام الغزالي في اورشليم والحجاز، انما نعلم ان حينئذ جد فيه الى الاهل والاطفال، وان هذا الحنين قد اشتد وطغى، وإذا بالغزالي يعود الى وطنه بعد ان كان عزمه الا يعود ابداً.

على ان العودة لم تصرفه عن الحياة الصوفية ، وبعد عشر سنين من تركه التدريس في بغداد ، وصل الى هذا الرأي في الصوفية : الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة ، سيرتهم احسن السير ، واخلاقهم ازكى الاخلاق ، لان جميع حركاتهم وسكناتهم « مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة ، على وجه الارض ، نور يستضاء به ^(١) » .

٥

وهكذا انتهى الغزالي من بحثه للفرق ونقدها ، واستقر رأيه على ان الحق في الصوفية ، فاعتنقها مذهباً له .

٢ - تدرؤاية المنقذ

على ان رؤاية الغزالي في المنقذ ، رؤاية شكوكه وبحثه وانتهائه الى التصوف ، ملامى بالمتناقضات ، مفتقرة الى نقد وتصحيح . واليك اهم ما نأخذ على هذه الرؤاية :

١ - خروج الغزالي من شكه في عقله غير منطقي :

ان عقلاً شك في قدرته لا يسهه الاطنتان الى نور ظهر له او دليل اقنعه ، دون ان يعيث بالمنطق . والحال ان الغزالي بعقله رأى النور الذي قذفه الله في صدره ، وبعقله رأى ان الاوليات واضحة بذاتها ، لا يطلب عليها برهان !

٢ - عصر الغزالي الحق على اربع فرق امر غريب :

حين يشك انسان في ايمانه ، وينوي البحث عن الايمان الحق ، عليه ان يستعرض اهم اديان عصره ، ومذاهب بينته ، فلماذا لم يقم الغزالي بهذا البحث الشامل ، وكيف امكنه ان يفترض - دون اي بحث

(١) المختارات : ص ٤٤

سابق - ان الحق لا يعدو احدى اربع فرق: الكلام والفلسفة والباطنية والصوفية ؟ !

٣ - نقد الغزالي للفرق نقد مسلم مؤمن لا نقد من يبحث عن ابعاده صانع:

ان الغزالي اقبل على نقد الفرق ، بعد ان اكّد لنا خلعه كل تقليد ، وكل ايمان ، واكّد اتخاذه اوليات العقل اساساً وحيداً للبحث .

وتقيد الغزالي بمنطق مقدماته حين نقد الكلام ، فعاب عليه استناده الى غير الضروريات العقلية ، واهتمامه بالرد على الخصوم اكثر من اهتمامه بالبحث عن الحق .

على ان الغزالي قد خرج عن المنطق كل الخروج حين اقبل على نقد باقي الفرق ، فتعدها كرجل مؤمن ، وعاب عليها ما عاب باسم الايمان !

ألم يسلم بعصمة الرسول حين ردّ على الباطنية ؟ ألم يحكم على الفلاسفة بالزندقة والكفر لانهم انكروا حقائق ايمانية ؟ ألم ير اخلاق الصوفية افضل الاخلاق لانها مقتبسة من نور النبوة ، وليس وراء نور النبوة نور ؟

ان نقد الغزالي للفرق هو نقد مؤمن في مجمله ، فكيف يتفق وموقفه الاساسي من البحث عن صحة الايمان ؟

٣ - فرض

واذا علينا ألا نتخذ رواية المنقذ على انها رواية صحيحة ، والا نستند اليها لمعرفة تطور تفكير الغزالي .

بل لا بد لنا من حلّ متناقضات هذه الرواية ، اذا شئنا الا نقف عند النقد ، وان نرى نوع تفكير الغزالي ، وتطور هذا التفكير . واليك خلاصة ما نرى :

١ - نظرية المذاهب الثلاثة :

يرى الغزالي ان لكل كامل ثلاثة مذاهب :
 احدها هو المذهب الرسمي ، مذهب الآباء والبيئة ، الذي يتعصب له
 الانسان وبياهي به .
 والثاني مذهب يستعمل في الارشاد ، ويتغير بتغير المسترشد ، مراعيًا
 فهمه وتفكيره .
 والثالث مذهب يعتقد به الرجل سرًا بينه وبين الله ، لا يطلع عليه
 غير الله ، او من شاركه فيه^(١) .

٢ - تطبيق النظرية على الغزالي :

واذا كانت هذه نظرية الغزالي الى المذاهب ، نستطيع ان نثبت
 الامور التالية :

١ - كان للغزالي مذهب رسمي ، هو مذهب السنة ، وقد دافع عنه
 في كتبه الكلامية ، فهاجم الباطنية ، وبدع الفلاسفة وكفر . وهذا
 المذهب لم يظهر فيه شكاً ، حتى في اعنف ساعات شكه ، يوم كان
 يدرس في بغداد .

ب - وكان الغزالي يبحث ، في سره ، عن مذهب يعتقد به بينه وبين
 ربه . ان مذهبه الرسمي ظل الى زمن مذهبه الباطني ، ولكنه منذ صباه
 بدأ يشك في هذا المذهب ، وبلغت شكوكه ذروتها اثناء تدريسه في
 بغداد . هذا الشك لم يبيح به ، ولم يكتب عنه ، بل كتمه في نفسه ،
 كل الفترة التي كان يقاسي فيها ربه وتردده . اما يوم خرج منه فقد

(١) انظر المختارات : ص ٥١-٥٢

تحدث عنه في اكثر من نص ، في المنقذ وفي غيره^(١) .

ج - واذًا لقد شكّ الغزالي حقاً ، شك في عقله وشك في ايمانه .
على ان هذا الشك ما كان جارفاً ، هادماً ، بل كان تردّداً وريباً .
شك الغزالي في عقله شكاً خفيفاً عارضاً ، لم يدم سوى شهرين ،
وخرج منه لأن شكّ العقل في قدرته لا يقوى طويلاً على الزمن .

وشك الغزالي في ايمانه شكاً رقيقاً طوراً ، وعنيفاً آخر ، وطال زمن
هذا الشك ، ولكنه لم يبلغ مرة واحدة الى طرح كل ايمان ، وخلع
كل عقيدة . وقد انتهى هذا الشك بذهب اختياري يؤمن ، على ما
نظن ، بالاسلام ديناً ، وبالتصوف مذهباً ، وبعض نظريات الفلاسفة اراء .
د - وجعل الغزالي من التصوف خير ثمرة للاسلام ، وخير طريق
للمؤمن ، وراقه ان يكتب فيه ويدعو اليه .

وليس كتاب المنقذ ، في نظرنا ، سوى دعوة الى التصوف . واذًا
هو من نوع الكتب التي يراد بها ارشاد الناس الى الحق ، والتي يستعمل
فيه صاحبه ما يقنع المسترشد . ولما كان الغزالي يتجه في ارشاده الى

(١) جاء في جواهر القرآن (ص ٤٤-٤٦) ، في معرض الحديث عن شئ من
الناس لم تفتح لهم طريق المعاني الروحانية في القرآن : « تشوشت عليهم الظواهر ،
واقدمت عندهم اعتراضات عليها ، وتنايل لهم ما يناقضها ، فبطل اصل اعتقادهم في
الدين ، واورثهم ذلك جحوداً باطنياً في الحشر والشّر ، والجنة والنار ، والرجوع
الى الله تعالى بعد الموت ، واظهروها في سرائرهم ، وانحلّ عنهم الحام التقوى . .
ولسنا نسبغ ذلك ، فاقد ثمرنا في اذبال هذه الضلالات مدة ، لسؤم اقران السوء
وصحبتهم ، حتى ابعدنا الله عن هفواتنا ، ووقانا من ورطاتها . »

وجاء في ميزان العمل ، بعد حديثه عن كثرة المذاهب : « ولو لم يكن في
مجاري هذه الكلمات الا ما يشككك في اعتقادك الموروث ، لتتدب للطلب فنهايك
به تقمّ . اذ الشكوك هي الموصلة الى الحق ، فن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم
يبصر ، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال ، نعوذ بالله من ذلك . »

المسلمين المؤمنين ، فقد رأى ان يهدم فيهم سلطان التقليد برواية ما عرض له من شكوك ، وان يتعد الفرق ببراهين مستمدة من ايمانهم . وهذا هو السبب ، على ما نظن ، الذي قطع الصلة بين شك الغزالي ونقده ، وجعل من المنقذ سلسلة متناقضات . لقد كانت غايته استدراج قارئه المسلم الى تصوفه ، لا عرض تطوره الفكري عرضاً واقعياً اميناً .

هـ - على ان الغزالي ، ان يبيح بتصوفه ، ويدعُ اليه ، فلأنه استطاع ان يلائم بينه وبين مذهبه الرسمي . ولكن أما كان يرى ، في مذهبه الرسمي ، بعض ما يرى الفلاسفة ، ويخالف مذهب السنة الرسمي ؟ هذا ما سنبجته في غير هذا المكان ، ان يسر الله .

مصادر الدراسة

ان ما استندنا اليه ، في درسا الغزالي ، من مصادر عربية واعجبية للائحة تطول .
لهذا آثرنا اثبات اهم تأليف الغزالي المطبوعة ، لمدين المأمأ بموضوعها الاساسي . وانا
نقسم هذه التأليف اقساماً اربعة :

١ - في الفقه

- ١ - المتصفر في علم الاصول : كتاب في اصول الفقه ، وضعه الغزالي
بعد عودته الى التدريس في نيسابور . وهذه الاصول هي : كتاب الله ،
والسنة ، واجماع المسلمين .
- ٢ - الوجيز في مذهب الامام الشافعي .

ب - في الكلام

نثبت تحت هذا العنوان ما ألّفه الغزالي عرضاً لعقيدة السنة ، او
دفاعاً عنها ضد الباطنية والفلاسفة ، لانا نعد كل ذلك - كما يعده الغزالي
نفسه - متصلًا بعلم الكلام :

- ١ - الاقتصاد في الاعتقاد : المطبعة الادبية ، مصر : كُتب قبل احيا .
علوم الدين ، وهو بحث في ذات الله ، وصفاته ، وافعاله ، ورسله ، على
طريقة المذهب الاشعري اجمالاً .

- ٢ - إجماع العوام عن علم الكلام : ردّ على الحشوية ، على اعتقادها في

الله ما يتقدس عنه من الصورة واليد ، والقدم ، والجلوس على العرش ،
وما يجري مجراه .

٣- فصل التفرقة بين الاسلام والزندقة : الكفر تكذيب الرسول .
وان تأويل القرآن قوانين ، يجب التقيدها ، للسلامة من الكفر .

○

٤- الفسطاس المستقيم : احد كتب الغزالي الكثيرة في الرد على الباطنية .
ويرى الغزالي ان معرفة المنطق كافية لتمييز الحق عن الباطل ، فالاستغناء
عن الامام المعصوم . والكتاب في جوهره عرض لقياسات منطقية .

○

٥- مفاسد الفلاسفة : كتاب ألفه الغزالي اثنا . تدريسه في بغداد ،
وقد عرض فيه فلسفة الفارابي وابن سينا ، تمهيداً للرد عليها في كتاب
التهاوت : « ان الوقوف على فساد المذاهب ، قبل الاحاطة بمداركها ،
بحال ، بل هو رمي في العمية والضلال . فرأيت ان اقدم على بيان
تهاوتهم كلاماً وجيزاً ، مشتملاً على حكاية مقاصدهم من علومهم
المنطقية ، والطبيعية ، والالهية ، من غير تمييز بين الحق منها والباطل . »

٦- خافت الفلاسفة : المطبعة الكاثوليكية ، بيروت : هو اعنف
حملة شتها متكلم على الفلاسفة . وقد حاول الغزالي اظهار ما في فلسفة
الفارابي وابن سينا من كفر ومن بدع ، وما في نظرياتهما من تناقض ،
وفي ادلتها من وهن . وقد دار رده حول عشرين مسألة ، تناول فيها
قدم العالم ، وطبيعة الله ، وروحانية النفس

ونعد هذا الكتاب تأليفاً كلامياً ، لا تأليفاً فلسفياً ، او قل نوعاً
من الجدل المزمع بين الدين والفلسفة . ذلك ان الغزالي لا يهدم فلسفة
معلومة - فلسفة الفارابي وابن سينا - ليبنى فلسفة اخرى خاصة ، وانما

يهدم الفلسفة جملة ، ويحط من قدرة العقل ، ليرفع من قدر الوحي ،
ويعلي من شأن النبوة. وان الغزالي بعد حريص على الهدم واطهار التناقض ،
اكثر مما هو حريص على اظهار الحق او الاقتناع بالحجة .

وان ما اتى به الغزالي ، اثنا. جدله ، من براهين عقلية ، ونظريات
فلسفية طريفة ، لامر اقتضاه الجدل ، وما نظن الغزالي - كما يبوح
هو نفسه - معتقداً كل ما يقول .

٧- ميار العلم : كتاب في المنطق ، اراد من وضعه تأليفاً في
هذا الموضوع ، واطلاع القارى على ما استعمله من اصطلاحات منطقية
في كتاب التهافت .

ج - في الصوف :

١- احياء علوم الدين : المطبعة العامرة ، مصر ، ١٣٢٦ هـ :

غرة كتب الغزالي ، شرع في تأليفه اثنا. سياحاته الصوفية ، ولعله
لم ينجزه في صيغته النهائية الا في اواخر عمره .

قال الغزالي مهذا لهذا الكتاب : « رأيت الاشتغال بتحرير هذا
الكتاب... احياء لعلوم الدين ، وكشفاً عن مناهج الائمة المتقدمين ،...
وقد اسسته على اربعة ارباع ، وهي ربع العبادات ، وربع العادات ،
وربع المهلكات ، وربع المنجيات ... »

ويشتمل ربع العبادات على عشرة كتب : كتاب العلم ، وكتاب
قواعد العقائد ، وكتاب اسرار الطهارة ، وكتاب اسرار الصلاة ،
وكتاب اسرار الزكاة ، وكتاب اسرار الصيام ، وكتاب اسرار الحج ،
وكتاب آداب تلاوة القرآن ، وكتاب الاذكار والدعوات ، وكتاب
ترتيب الاوراد في الاوقات .

واما ربع العادات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب آداب الاكل ،
 وكتاب آداب النكاح ، وكتاب احكام الكسب ، وكتاب الحلال
 والحرام ، وكتاب آداب الصعبة والمباشرة مع اصناف الخلق ، وكتاب
 العزلة ، وكتاب آداب السفر ، وكتاب السماع والوجد ، وكتاب الامر
 بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكتاب آداب المعيشة واخلاق النبوة .

واما ربع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب شرح
 عجائب القلب ، وكتاب رياضة النفس ، وكتاب آفات الشهوتين ، شهوة
 البطن وشهوة الفرج ، وكتاب آفات اللسان ، وكتاب آفات الغضب
 والحقد والحسد ، وكتاب ذم الدنيا ، وكتاب ذم المال والبخل ،
 وكتاب ذم الجاه والرياء ، وكتاب ذم الكبر والعجب ، وكتاب ذم
 الغرور .

واما ربع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب التوبة ،
 وكتاب الصبر والشكر ، وكتاب الحُوف والرجاء ، وكتاب الفقر والزهد ،
 وكتاب التوحيد والتوكل ، وكتاب المحبة والشوق والانس والرضى ،
 وكتاب النية والصدق والاخلاص ، وكتاب المراقبة والمحاسبة ، وكتاب
 التفكير ، وكتاب ذكر الموت .

وكأن هذا الكتاب دائرة معارف لما علم الاسلام في العقائد
 والاخلاق ، وانه لاعمق كلمة فاهت بها خلوات الغزالي .

٢ - كتاب الاربيين في اصول الدين : كتب بعد كتاب الاحياء ، وهو
 مثله اربعة ارباع ، وكأنه مختصر له .

٣ - كيمياه السعادة : بهذه الكيمياء يتحول القلب من الرذيلة الى
 الفضيلة ، على نحو ما جاء في كتاب «عجائب القلب» من ربع المهلكات .

٤ - الرسالة اللدنية : العلوم اما انسانية كالعلوم الشرعية والفلسفية ،

واما ربانية او لادية ، وهي ما تقال بالالهام الصوفي . والعلم اللذي يغنيك
عن العلم الانساني .

٥ - رسالة الطير : رسالة رمزية صوفية : اجتمعت انواع الطيور ،
واختارت العنقا . لها ملكاً . ولما كانت العنقا . تسكن الغرب ، جدت
الطيور في طلبها ، حتى اذا مات اكثرها في الطريق ، وبلغ الباقيون الغاية ،
علموا انهم انما بارادة الملك قد اتوا اليه : « انتم بانفسكم جنتم ، ام نحن
دعوناكم ؟ انتم اشتقمتم ام نحن شوقناكم ؟ نحن اقلقتناكم فحملناكم في البر
والبحر . »

٦ - ايجال الولد : رسالة يبحث فيها الغزالي تلميذاً انهى علومه على ان
يقرن العلم بالعمل . كتبها بعد احياء علوم الدين

٧ - ميزان العمل : مطبعة كردستان : قال الغزالي في مقدمته :
« نبين ان الفتور عن طلب السعادة حماقة ، ثم نبين ان لا طريق الى
السعادة الا بالعلم والعمل ، ثم نبين العلم وطريق تحصيله ، ثم نبين العمل
المسعد وطريقه . »

٨ - الدرة الفاخرة : وصف لما يحدث للانسان بعد الموت .

٩ - جواهر القرآن : مطبعة كردستان ، مصر : فيه تقسيم للعلوم
الدينية .

١ - في زجره هباء

المنذ من الضلال : مطبعة الترقى بدمشق ، ١٩٣٩ : يطلعنا الغزالي ،
في هذا الكتاب ، على شكه ، وبحثه عن الحقيقة في علم الكلام ،
والفلسفة ، والباطنية ، والصوفية ، وعلى ما جرى له خلال ذلك من
حالات عقلية ونفسية ، وحوادث خارجية مهمة .

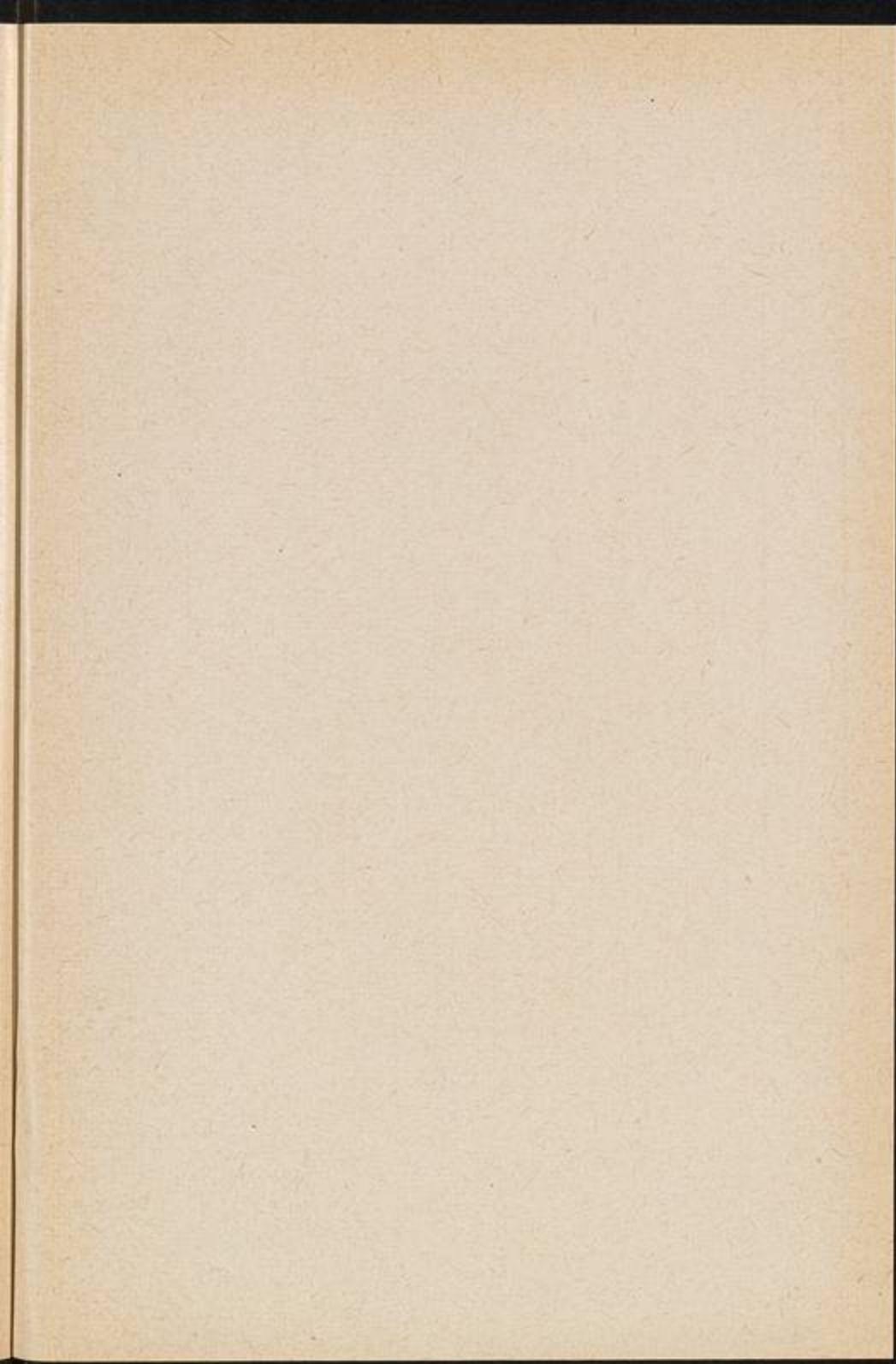
مختارات

أعدنا ، في مختاراتنا من النزالي ، كتاب تحافت الفلاسفة ، كما اعملناه - او
كدنا - في دراستنا ، آملين العودة اليه في دراسة مستقلة .
وقد حاولنا اختيار نصوص بارزة ، تروي قصة حياة ، او تبهر عن رأي .
وقد رأينا ان نلائم بين الدراسة والمختارات ، فنشرنا ، في هذا الجزء ، النصوص
التالية :

- ١ - من المنقذ من الضلال : ام نصوص الرسالة ، موجزين ما اعملنا منها .
- ٢ - من ميزان العمل : معنى المذهب - اعمل وان غير مؤمن !
- ٣ - من كتاب الاحياء : نصاً في علم الكلام .

رسالة

المنقذ من الضلال



غاية الرسالة

سأنتني ، أيها الاخ ، أن أثبت إليك غاية العلوم وأسرارها ، وغائلة المذاهب وأغوارها ، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق ، مع تباين المسالك والطرق ، وما استجرت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد إلى يفاع الاستبصار ، وما استفدته أولاً من علم الكلام ، وما اجتويته ثانياً من طرق أهل التعليم القاصرين ، لدرك الحق ، على تقليد الامام ، وما ازدريته ثالثاً من طرق التفلسف ، وما ارتضيته آخراً من طريقة التصوف ، وما انجلي لي ، في تضايف تفتيشي عن أقاويل الخلق ، من لباب الحق ، وما صرفني عن نشر العلم ببغداد ، مع كثرة الطلبة ، وما دعاني الى معاودتي بنيسابور ، بعد طول المدة ، فابتدرت لاجابتك الى مطلبك ، بعد الوقوف على صدق رغبتك . . .

الك في الامامة

اعلموا - أحسن الله تعالى ارشادكم ، وألان للحق قيادكم - ان اختلاف الخلق في الاديان والملل ، ثم اختلاف الائمة في المذاهب ، على كثرة الفرق وتباين الطرق ، بحر عميق غرق فيه الاكثرون ، وما نجا منه الا الاقون . وكل فريق يزعم انه الناجي . . .

ولم ازل في عنفوان شباني ، منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين ، إلى الآن ، وقد أناف السن على الحسين ، اقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجمور ، لا خوض الجبان الحذور ، واتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، واتفحص

عن عقيدة كل فرقة ، واستكشف اسرار مذهب كل طائفة ...
وقد كان التعطش الى درك حقائق الامور دأبي وديدي من اول
امري وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبتي ، لا
باختياري وحيثي ، حتى التحت عني رابطة التقليد ، وانكسرت علي
العقائد الموروثة ، على قرب عهد بسن الصبا ، اذ رأيت صيان النصارى
لا يكون لهم نشوء الا على التنصر ، وصيان اليهود لا نشوء لهم الا
على التهود ، وصيان المسامين لا نشوء لهم الا على الاسلام . وسمعت
الحديث المروي عن رسول الله ، صلى عليه وسلم ، حيث قال : « كَلُّ
مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُجَسَّسَانِهِ » ،
فتحرك باطني إلى حقيقة الفطرة الاصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد
الوالدين والاستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات ، واوائلها تلقينات ،
وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات .

ما اليقين ؟

فقلت في نفسي : أولاً ، إننا مطلوبي العلم بحقائق الامور ، فلا بد
من طلب حقيقة العلم ما هي : فظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي
ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان
الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك . بل الامان من الخطأ ينبغي
ان يكون مقارناً لليقين مقارنة لو تحدى باظهار بطلانه ، مثلاً ، من
يقلب الحجر ذهباً ، والمصا ثعباناً ، لم يورث ذلك شكاً وإنكاراً .
فاني إذا علمت ان العشرة اكثر من الثلاثة ، فلو قال لي قائل : لا ،
بل الثلاثة اكثر ، بدليل أنني أقلب هذه المصا ثعباناً ، وقلبها ، وشاهدت
ذلك منه ، لم أشك بسببه في معرفتي ، ولم يحصل لي منه إلا التعجب
من كيفية قدرته عليه . فأما الشك فيما علمته ، فلا .

ثم علمت ان كل ما لا اعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه . وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني .

الشك في الحس والفضل

ثم فنشت عن علمي ، فوجدت نفسي عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة ، إلا في الحسيات والضروريات . فقلت : الآن بعد حصول اليأس ، لا مطمع في اقتباس المشكلات الا من الحليآت ، وهي الحسيات والضروريات . فلا بد من إحكامها أولاً لآتيقن أن ثقتي بالمحسوسات ، وأماني من الغلط في الضروريات . . . هو أمان محقق لا غدر فيه ولا غائلة له . فأقبلت بجدٍ بليغ أتأمل في المحسوسات والضروريات ، وانظر هل يمكنني ان اشبكك نفسي فيها . فانتهى بي طول التشكيك الى ان لم تسمح نفسي بتسليم الامان في المحسوسات ايضاً ، واخذ يتسع الشك فيها ويقول : من اين الثقة بالمحسوسات ، وأقواها حاسة البصر ، وهي تنظر الى الظل فتراه واقفاً غير متحرك ، وتحكم بنفي الحركة ، ثم بالتجربة والمشاهدة ، بعد ساعة ، تعرف انه متحرك ، وانه لم يتحرك دفعةً بفتةً ، بل على التدريج ذرةً ذرةً ، حتى لم تكن له حالة وقوف ؟ وتنظر الى الكوكب فتراه صغيراً ، في مقدار دينار ، ثم الادلة الهندسية تدل على انه اكبر من الارض في المقدار ؟ هذا وامثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس باحكامه ، ويكذبه حاكم العقل ويخوننه تكديباً لا سبيل الى مدافعته . فقلت : قد بطلت الثقة بالمحسوسات ايضاً . فلعله لا ثقة إلا بالعقليات التي هي من الاوليات ، كقولنا : العشرة اكثر من الثلاثة ، والنفي والاثبات لا يجتمعان في الشيء . الواحد ، والشيء . الواحد لا يكون حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً ، واجباً محالاً . فقالت

المحسوسات : فمَ تأمن ان تكون ثقتك بالعقليات كتعتك بالمحسوسات ،
وقد كنتَ واثقاً بي ، فجا . حاكم العقل فكذبني ، ولولا حاكم العقل
لكنت تستر على تصديقي ؟ فلعل ورا . ادراك العقل حاكماً آخر ، اذا
تجلى ، كذب العقل في حكمه ، كما تجلّى حاكم العقل فكذب الحس في
حكمه . وعدم تجلي ذلك الادراك لا يدل على استغاثته . فتوقفت
الفس في جواب ذلك قليلاً ، وايدت إشكالها بالنام ، وقالت : أما
ترآك تعتقد في النوم اموراً ، وتتضيل احوالاً ، وتعتقد لها ثباتاً واستقراراً ،
ولا تشك في تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم انه لم يكن لجميع
متخيلاتك ومعتقداتك اصل وطائل ؟ فمَ تأمن ان يكون جميع ما
تعتقد في يقظتك ، جس او عقل ، هو حق بالاضافة الى حاتك التي انت
فيها ، لكن يمكن ان تطراً عليك حالة تكون نسبتها الى يقظتك ،
كنسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون يقظتك نوماً بالاضافة إليها ؟ !
فاذا وردت تلك الحالة ، تيقنت ان جميع ما توهمت بمعلق خيالات لا
حاصل لها . ولعل تلك الحالة ما يدعيه الصوفية انها حالتهم ، اذ يزعمون
انهم يشاهدون في احوالهم ، التي لهم ، اذ غاصوا في انفسهم وغابوا عن
حواسهم ، احوالاً لا توافق هذه المعقولات . ولعل تلك الحالة هي الموت ،
اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الناس نيام فاذا ماتوا انبهاوا» .
فلعل الحياة الدنيا نوم بالاضافة الى الآخرة ، فاذا مات ، ظهرت له الاشياء
على خلاف ما يشاهده الآن . . .

فلما خطرت لي هذه الخواطر ، وانقدحت في النفس ، حاولت لذلك
علاجاً ، فلم يتيسر ، اذ لم يكن دفعه الا بالدليل ، ولم يمكن نصب
دليل الا من تركيب العلوم الاولية ، فاذا لم تكن مسلمة لم يمكن
ترتيب الدليل . فاعضل هذا الداء ، ودام قريباً من شهرين ، أنا فيها
على مذهب السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال ، حتى

شفي الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس الى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة ، موثوقاً بها على أمن و يقين . ولم يكن ذلك بنظم دليل ، وترتيب كلام ، بل بتور قذفه الله تعالى في الصدر . وذلك النور هو مفتاح اكثر المعارف . فمن ظن ان الكشف موقوف على الادلة المحررة ، فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة . ولما سئل رسول الله عليه السلام عن « الشرح » ومعناه ، في قوله تعالى : « فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام . » فقال : « هو نور يقذفه الله تعالى في القلب . » قيل : « وما علامته ؟ » فقال : « التجاني عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود . » وهو الذي قال عليه السلام فيه : « ان الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره . » فمن ذلك النور ينبغي ان يطلب الكشف . وذلك النور ينبجس من الجود الالهي ، في بعض الاحايين ، ويجب التردد له ، كما قال عليه السلام : « ان لرؤسكم في ايام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها ! » .

والمقصود من هذه الحكايات ان يُعمل كمال الجِد في الطلب ، حتى ينتهي الى طلب ما لا يطلب . فان الاوليات ليست مطلوبة ، فانها حاضرة . والحاضر اذا طلب فقد واختفى ...

اصناف الطالبين

ولما شغاني الله تعالى من هذا المرض بغضه وسعة جوده ، انحصرت اصناف الطالبين عندي في اربع فرق :

- ١ - المتكلمون : وهم يدعون انهم اهل الرأي والنظر .
- ٢ - الباطنية : وهم يزعمون انهم اصحاب التعليم ، والمخصوصون بالاعتباس من الإمام المعصوم .
- ٣ - الفلاسفة : وهم يزعمون انهم اهل المنطق والبرهان .

٦ - الصوفية : وهم يدعون أنهم خواصُّ الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة .

فقلت في نفسي : الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة ، فهؤلاء هم السالكون سُبُلَ طلب الحق ، فإن شذَّ الحق عنهم ، فلا يبقى في ذلك الحق مطمع ، إذ لا مطمع في الرجوع إلى التقليد بعد مفارقتة ، إذ من شرط المقلِّد أن لا يعلم أنه مقلِّد ، فإذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده ، وهو شغب لا يُؤاب ، وشعث لا يُلم بالتلفيق والتأليف ، إلا أن يذاب بالنار ، ويستأنف له صنعة أخرى مستجدة فابتدرت اسلوك هذه الطرق ، واستقصا ما عند هذه الفرق ، مبتدئاً بعلم الكلام ، ومُتَّبِعاً بطريق الفلسفة ، ومثلثاً بتعليم الباطنية ، ومرربماً بطريق الصوفية :

١ - علم الكلام : مقصوده ومآصله

ثم إنني ابتدأت بعلم الكلام ، فحصلته وعقلته ، وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف ، فصادفته علماً وافياً بمقصوده ، غير وافٍ بمقصودي . وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة ، وحراستها عن تشويش أهل البدعة . فقد ألقى الله تعالى إلى عباده ، على لسان رسوله ، عقيدة هي الحق ، على ما فيه صلاح دينهم وديناهم ، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار . ثم ألقى الشيطان في وسوس المبتدعة اموراً مخالفة للسنة ، فلهجوا بها وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها . فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلمين ، وحرك دواعيهم لنصرة السنة . . . ولكنهم اعتمدوا في ذلك على مقدمات تسلسوها من خصومهم ، وأضطرَّهم إلى تسليها : إما التقليد ، أو إجماع الأمة ، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار . وكان أكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم ، ومواخذتهم

بلوازم مسلمتهم . وهذا قليل النفع في حق من لا يُسَلِّم سوى الضروريات شيئاً اصلاً . فلم يكن الكلام في حقي كافياً ، ولا لدائي الذي كنت اشكوه شافياً ...

٢ - الفلسفة

ثم إنني ابتدأت ، بعد الفراغ من علم الكلام ، بعلم الفلسفة . وعلمت يقيناً انه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوي اعلمهم في اصل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته ، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة ... فسترت عن ساق الحد ، في تحصيل ذلك العلم من الكتب ، بتجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ ، وأقبلت على ذلك في اوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية ، وأنا ممنون بالتدريس والإفادة لثلاثة نفس من الطلبة ببغداد . فأطلعني الله سبحانه وتعالى ، بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلصة ، على منتهى علومهم في اقل من سنتين . ثم لم أزل اوانظ على التفكير فيه بعد فهمه قريباً من سنة ، أعاوده وارده وأنفقد غوائله وأغواره ، حتى أطلعت على ما فيه من خداع وتلبيس ، وتحقيق وتخيل ، اطلاقاً لم اشك فيه .

فاسمع الآن حكايته وحكاية حاصل علومهم ، فإنني رأيتهم اصنافاً ، ورأيت علومهم اقساماً ؛ وهم على كثرة اصنافهم يازمهم وصمة الكفر والإحاد ، وإن كان بين القدماء منهم والاقدمين ، وبين الأواخر منهم والأوائل ، تفاوت عظيم في البعد عن الحق والقرب منه .

ثم يقسم الغزالي الفلاسفة ثلاثة اقسام : دهرين جحدوا الله ، وطبيعين آمنوا بالله ائماً انكروا خلود النفس واليوم الآخر ، والهيين - كسقراط وافلاطون وارسطو عند اليونان ، وكابن سينا والغارابي من متفلسفة الاسلام - قد آمنوا بالله والاخرة ، ائماً كفروا بعباده وانوا ببدع .

الدهريون والطيبيون زنادقة ، لا يرى الغزالي الى جدالهم حاجة . اما الآلهيون ففلسفتهم اقسام ستة : رياضية ، ومنطقية ، وسياسية ، وخلفية ، وطبيعية ، واهية . الرياضيات والمنطق والسياسة والاخلاق علوم صحيحة . الطبيعيات خالفت الدين في مسائل معينة .

اما الالهيات

اما الالهيات ففيها اكثر اغاليطهم ، فما قدروا على الوفاء بالبرهين على ما شرطوه في المنطق ، ولذلك كثير الاختلاف بينهم فيها . ولقد قرب مذهب ارسطاطاليس فيها من مذهب الاسلاميين ، على ما نقله الفارابي وابن سينا . ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع الى عشرين اصلاً ، يجب تكفيرهم في ثلاثة منها ، وتبديعهم في سبعة عشر . ولا بطلال مذهبهم في هذه المسائل العشرين ، صنفنا كتاب التهاافت .

اما المسائل الثلاث ، فقد خالفوا فيها كافة المسلمين ، وذلك في قولهم :
١ - ان الاجساد لا تحشر ، وانا المُناب والمعاقب هي الارواح المجردة ، والمثوبات والعقوبات روحانية ، لا جسانية . ولقد صدقوا في اثبات الروحانية ، فانها كائنة ايضاً ، ولكن كذبوا في انكار الجسمانية ، وكفروا بالشريعة في ما نطقوا فيه .

٢ - ومن ذلك قولهم : ان الله تعالى يعلم الكلليات ، دون الجزئيات . وهذا ايضاً كفر صريح ، بل الحق انه «لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الارض .»

٣ - ومن ذلك قولهم بقدم العالم وازليته ، فلم يذهب احد من المسلمين الى شيء من هذه المسائل

واما وراء ذلك من نقيهم الصفات ، وقولهم انه علم بالذات ، لا يعلم زائد ، وما يجري مجراه ، فذهبهم فيها قريب من مذهب المعتزلة ، ولا يجب تكفير المعتزلة بثل ذلك .

٣ - مذهب التعليم وغائلته

ثم إنني لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهمه وترييف ما يزيّف منه ، علمت ان ذلك ايضاً غير وافٍ بكمال الغرض ، وان العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للنظام عن جميع المعضلات . وكان قد نبغت نابغة التعليمية ، وشاع بين الخلق تحدُّثهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الإمام المعصوم القاسم بالحق ، عن لي ان اجث عن مقالاتهم ، لأطلع على ما في كتبهم . ثم اتفق ان ورد عليّ أمر جازم من حضرة الخلافة ، بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم ، فلم يسعني مدافعته ، وصار ذلك مستحشاً من خارج ، ضيمية للباعث الأصلي من الباطن . فابتدأت بطلب كتبهم وجمع مقالاتهم

ودعواهم انه : « لا يصلح كل معلم ، بل لا بُد من معلم معصوم . » وظهرت حججهم في إظهار الحاجة الى التعليم والمعلم ، وضعف قول المنكرين في مقابلته ، فاغترّ بذلك جماعة وظنوا ان ذلك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالفين لهم ، ولم يفهموا ان ذلك لضعف ناصر الحق وجهله بطريقه ، بل الصواب الاعتراف بالحاجة الى المعلم ، وانه لا بُد وان يكون المعلم معصوماً ، ولكن معلنا المعصوم هو محمد عليه السلام . فإذا قالوا : « هو مَيِّتٌ » فنقول : « فعلمكم غائب . » فإذا قالوا : « معلنا قد عمّ الدعاة وبشّهم في البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم ان اختلفوا او اشكل عليهم مشكل . » فنقول : « ومعلنا قد علم الدعاة وبشّهم في البلاد وأكل التعليم اذ قال الله تعالى : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي » . وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا يضر غيبته .

ثم يتطرق الغزالي الى تفاصيل فيرى ان الخلاف بين الناس يرفع بواسطة المنطق ، الذي استخرجه من القرآن في كتابه الفسطاط المستقيم ، كما يرى ان امام الباطنية لم يرفع ذلك الخلاف ، بل كان الخلاف الذي احده علي رأس الائمة المعصومين سبباً لسفك الدماء وتخريب البلاد .

٤ - الصوفية

ثم اني لما فرغت من هذه العلوم ، اقبلت بهتتي على طريق الصوفية ، وعلمت ان طريقتهنم انما تتم بعلم وعمل . وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل الى تحلية القلب عن غير الله تعالى ، وتخليته بذكر الله .

وكان العلم ايسر علي من العمل . فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ، مثل : « فوت القلوب » لأبي طالب المكي ، وكتب « الحارث المحاسبي » ، والمتفرقات المأثورة عن « الجنيد » و « الشبلي » و « ابي يزيد البسطامي » ، وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلمت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن ان يحصل من طريقهم بالتعلم والسمع . فظهر لي ان اخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات . . .

وكان قد حصل معي - من العلوم التي مارستها والمسالك التي سلكتها ، في التفتيش عن صنفى العلوم الشرعية والعقلية - إيمان يقيني بالله تعالى ، وبالنبوة ، وباليوم الآخر . فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت رسخت في نفسي ، لا بدليل معين محرر ، بل بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها .

وكان قد ظهر عندي انه لا مطمع في سعادة الآخرة الا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى . وان رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار العرور ، والانابة الى دار الخلود ، والاقبال بكنهه

المهمة على الله تعالى . وان ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه والمال ،
والهرب من الشواغل والعلائق .

ثم لاحظت احوالي ، فاذا انا منغمس في العلائق ، وقد احدثت بي
من الجوانب . ولاحظت اعمالى ، واحسنها التدريس والتعليم ، فاذا انا فيها
مقبل على علوم غير مهمة ، ولا نافعة في طريق الآخرة .

ثم تفكرت في نيتي في التدريس ، فاذا هي غير خالصة لوجه الله
تعالى ، بل باعها ومحركها طلب الجاه ، وانتشار الصيت . فتيقنت انى على
شفا جرف هار ، وانى قد اشفيت على النار ، ان لم اشتغل بتلافي الاحوال .
فلم ازل اتفكر فيه مدة ، وانا بعد على مقام الاختيار ، اصمم العزم
على الخروج من بغداد ، ومفارقة تلك الاحوال يوماً ، وأحل العزم يوماً
واقدم فيه رجلاً ، واؤخر عنه اخرى . لا تصدق لي رغبة في طلب
الآخرة بكرة ، الا وتحمل عليها جند الشهوة حمة فتفتقها عشية . فصارت
شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها الى المقام ، ومنادي الايمان بنادي :
الرحيل ! الرحيل ! فلم يبق من العمر الا القليل ، وبين يديك السفر
الطويل ، وجميع ما انت فيه من العلم والعمل رياء . وتخييل ! فان لم
تستعد الآن للآخرة ، فمتى تستعد ؟ وان لم تقطع الآن هذه العلائق ،
فمتى تقطع ؟ فعند ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار .
ثم يورد الشيطان ، ويقول : « هذه حال عارضة ، اياك ان تطاوعها ،
فانها سريعة الزوال . فان اذعنت لها ، وتركت هذا الجاه المريض ،
والشان المنظوم الحالى عن التكدير والتنغيص ، والامن المسلم الصافي
عن منازعة الحُصوم ، ربما التفتت اليه نفسك ، ولا يتيسر لك المعاودة . »^١

(١) ان هذا التراع النفسي ، الذي هزّ الغزالي في اعماقه ، لشبيه بما حدث
للقدس اغسطينوس ، عندما دعاه الله اليه . واليك مقطعاً من « الاعترافات » بصور
لك تلك الماصفة الداخلية :

فلم ازل اتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة ، قريبا من ستة اشهر ، اولها رجب سنة ثمان وثمانين واربعمئة . وفي هذا الشهر ، جاوز الامر حد الاختيار الى الاضطرار ، اذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت اجاهد نفسي ان ادرس يوماً واحداً ، تطيبياً لقابوب المختلفة التي ، فكان لا ينطلق لساني بكلمة ، ولا استطيعم البتة ، حتى اورثت هذه العتلة في اللسان حزناً في القلب ، بطلت معه قوة الهضم ، ومراة الطعام والشراب ، فكان لا ينساغ لي ثريد ، ولا تنهضم لقعة . وتعدى الى ضعف القوى ، حتى قطع الاطباء طعمهم من العلاج ، وقالوا : هذا امر نزل بالقلب ، ومنه سرى الى المزاج ، فلا سبيل اليه بالعلاج ، الا بان يتروح السر عن الهم الملم .

ثم لما احسست بعجزتي ، وسقط بالكلية اختياري ، التجأت الى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له ، فاجابني الذي «يجيب المضطر اذا دعاه»^(١) ، وسهّل على قلبي الاعراض عن الجاه والمال والاولاد والاصحاب . وظهرت عزم الخروج الى مكة ، وانا ادبر في نفسي سفر الشام ، حذراً ان يطلع الخليفة وجملة الاصحاب على عزمي في المقام بالشام . فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد ، على عزم ان لا اعاودها ابداً . واستهدفت لائمة اهل العراق كافة ، اذ لم يكن فيهم من يجوز ان يكون الاعراض عما كنت فيه سبباً دينياً ، اذ ظنوا ان ذلك هو المنصب الاعلى في الدين . وكان ذلك مبلغهم من العلم .

« في قلبي الفاسي كنت اوبخ نفسي اكثر من العادة ، وانقلب متسرغاً في قيودي لاكمل قطعها . . . كنت مقيداً بتوافه سافلة ، باباطيل منجعة ، بصدقات الامر اللواتي كن كائن يردني بباب الجسد ، وجمسن في اذني : انتركنا ؟ ولن نسكن معك الى الابد ! وسيجرم عليك كذا وكذا الى الابد ! وما كانت ، الهي ، هذه الاشياء التي يوقظن صورها في ؟ امعها برأفتك من ذكريات عبدك ! يا لها من فظائع منجعة ! » .

ثم ارتبك الناس في الاستنباطات ، وظن من بعد عن العراق ان ذلك كان لاستعمار من جهة الولاة . واما من قرب من الولاة ، وكان يشاهد الحاحهم في التعلق بي ، والانكباب عليّ ، واعراضهم عنهم ، وعن الالتفات الى قولهم ، فيقولون : هذا امر ساروي ، وليس له بسبب الا عين اصابت اهل الاسلام ، وزمرة العلم !

ففارقت بغداد ، وفرقت ما كان معي من المال ، ولم أدخر إلا قدر الكفاف ، وقوت الاطفال ، ترخصاً بأن مال العراق مُرصد للمصالح ، لكونه وقفاً على المسلمين ، فلم ارَ في العالم مالا يأخذه العالم لعياله اصلح منه .

ثم دخلت الشام ، وأقت به قريباً من سنتين لا شغل لي إلا العزلة والخلوة ، والرياضة والمجاهدة ، اشتغلاً بتربية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصّته من علم الصوفية . فكنت اعتكف مدة في مسجد دمشق ، أصدع منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسي .

ثم رحلت منها الى بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة ، وأغلق بابها على نفسي .

ثم تحركت في داعية فريضة الحج ، والاستمداد من بركات مكة والمدينة ، وزيارة رسول الله تعالى عليه السلام ، بعد الفراغ من زيارة الحليل صلوات الله عليه ، فسرت الى الحجاز

ثم جذبتني الهمم ، ودعوات الاطفال الى الوطن ، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع اليه . فأثرت العزلة به ايضاً حرصاً على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر .

وكانت حوادث الزمان ، ومهات العيال ، وضرورات المعاش ، تعيّر

في وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة . وكان لا يصفو لي الحال إلا في اوقات متفرقة . لكنني مع ذلك لا اقطع طمعي منها ، فتدفعني عنها العوائق ، وأعود إليها .

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين . وانكشف لي في اثنا . هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها . والقدر الذي اذكره ليُتفَع به : أني علست يقيناً ان الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وان سيرتهم احسن السير ، وطريقهم اصوب الطرق ، واخلاقهم اذكي الاخلاق . بل نُوجع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على اسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئاً من سيرهم واخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا اليه سبيلاً . فان جميع حركاتهم وسكناتهم ، في ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الارض نور يُستضاء به .

وبالجملة ، فاذا يقول القائلون في طريقة ، طهارتها - وهي اول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة ، استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله ؟ وهذا آخرها بالإضافة الى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائها . وهي على التحقيق اول الطريقة ، وما قبل ذلك كالدلهيز للسالك اليه .

ومن اول الطريقة تتدنى المكاشفات والمشاهدات ، حتى انهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وارواح الانبياء ، ويسمعون منهم اصواتاً ويقتبسون منهم فوائد . ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والامثال ، الى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، فلا يحاول معبر ان يعبر عنها إلا اشتغل لفظه على خطا صريح لا يمكنه الاحتراز عنه .

وعلى الجملة ، ينتهي الامر الى قرب ، يكاد يتخيل منه طائفة

الحلول ، وطائفة الاتحاد ، وطائفة الوصول ، وكل ذلك خطأ. وقد بيننا وجه الخطأ فيه في كتاب « المقصد الأسنى » ، بل الذي لا يسته تلك الحالة لا ينبغي ان يزيد على ان يقول :

وكانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكَرُهُ فَظَنَّ خَيْرًا وَلَا تَسْأَلُ عَنِ الْخَيْرِ ۱)

ويتطرق النزالي الى البحث في النبوة ، فاذا هي معرفة تجوز طور العقل ، كما عرف الطب والنجوم ، وجاء تداوى القلوب ، النوم لها افزوج والتصوف طريق . اما فتور بعض الخلق - كالفلاسفة وغلاة المتصوفة وغيرهم - في الايمان بالنبوة فيعود الى مزاعم ليس ايسر من افصاحها .

رجوع الى نشر العلم

ثم اني لما واضطت على العزلة والحلوة قريباً من عشر سنين ، وبان لي في اثناء ذلك على الضرورة ، من أسباب لا أحصياها ، مرة بالذوق ، ومرة بالعلم البرهاني ، ومرة بالقبول الايماني : أن الإنسان خلق من بدن وقلب ، وأعني بالقلب حقيقة روحه التي هي محل معرفة الله ، دون اللحم والدم ، الذي يشارك فيه الميت والبهيمة . وان البدن له صحة بها سعادته ، ومرض فيه هلاكه . وان القلب كذلك له صحة وسلامة ، ولا ينجو « إلا من اتى الله بقلب سليم » ، وله مرض فيه هلاكه الابدي الاخروي ، كما قال تعالى : « في قلوبهم مرض » . وأن الجهل بالله سم مهلك ، وان معصية الله ، بتابعة الهوى ، داؤه المرض . وان معرفة الله تعالى تriage المحيي ، وطاعته بخالفته الهوى دواؤه الشافي ، وان لا سبيل الى معالجته ، بازالة مرضه وكسب صحته ، الا بادوية ، كما لا سبيل الى معالجة البدن إلا بذلك . وكما ان ادوية البدن تؤثر في كسب الصحة بخاصية فيها لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل ، بل يجب فيها

(١) هذا البيت لابن المعتز .

تقليد الاطباء الذين اخذوها من الانبياء ، الذين اطلدوا بخاصية النبوة على خواص الاشياء ، فكذلك بان لي ، على الضرورة ، ان ادوية العبادات مجدودها ، ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الانبياء ، لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء ، بل يجب فيها تقليد الانبياء الذين ادركوا تلك الخواص بنور النبوة ، لا ببضاعة العقل ...

فالانبياء اطباء امراض القلوب ، وانما فائدة العقل وتصرفه ان عرفنا ذلك ، ويشهد للنبوة بالتصديق ، ولنفسه بالعجز عن درك ما يُدرك بعين النبوة ، واخذ بايدينا ، وسلمنا اليها تسليم العميان الى القائدين ، وتسليم المرضى المتحيرين الى الاطباء المشفقين . والى ههنا مجرى العقل ومخطاه ، وهو معزول عما بعد ذلك ، الا عن تفهيم ما يلقيه الطبيب اليه .

فهذه امور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة ، في مدة الحلوّة والعزلة .

ثم رأينا فتور الاعتقادات في اصل النبوة ، ثم في حقيقة النبوة ، ثم في العمل بما شرحت النبوة ، وتحققنا شيوع ذلك بين الخلق ، فنظرت الى اسباب فتور الخلق ، وضعف ايمانهم ، فاذا هي اربعة :

١ - سبب من الخائضين في علم الفلاسفة .

٢ - وسبب من الخائضين في طريق التصوف .

٣ - وسبب من المنتسبين الى دعوى التعليم .

٤ - وسبب من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس .

فاني تتبعت مدة آحاد الخلق ، اسأل من يقصر منهم في متابعة الشرع ، واسأله عن شبهته واجث عن عقيدته وسره ، وقلت له : « ما لك تقصر فيها ؟ فان كنت تؤمن بالآخرة ولست تستعد لها وتبيعها بالدنيا ، فهذه حماقة فانك لا تبيع الاثنيين بواحد ، فكيف تبيع ما

لا نهاية له بايام معدودة ؟ وان كنت لا تؤمن ، فأنت كافر افدبر نفسك في طلب الايمان ، وانظر ما سبب كفرك الخفي الذي هو مذهبك باطناً ، وهو سبب جراتك ظاهراً ، وان كنت لا تُصرح به تجملًا بالايمان وتشرُّفًا بذكر الشرع ا .

فقايل يقول : « هذا امر لو وجبت المحافظة عليه ، لكان العلماء أجدر بذلك ، وفلان من المشاهير بين الفضلاء . لا يصلي ، وفلان يشرب الخمر ، وفلان يأكل اموال الاوقاف واموال اليتامى ، وفلان يأكل ادرار السطان ولا يجتاز عن الحرام ، وفلان يأخذ الرشوة على القضا . والشهادة ا » وهلم جرا الى امثاله ...

وقائل ثانٍ : يدعي علم التصوف ، ويزعم انه قد بلغ مبلغاً ترقى عن الحاجة الى العبادة !

وقائل ثالث : يتعلل بشبهة أخرى من شبهات اهل الاباحة ! وهؤلاء هم الذين ضلوا عن التصوف .

وقائل رابع : لقي اهل التعليم فيقول : « الحقُّ مشكل ، والطريق اليه متعسر ، والاختلاف فيه كثير ، وليس بعض المذاهب ابولى من بعض ، وأدلة العقول متعارضة ، فلا ثقة برأي أهل الرأي ، والداعي الى التعليم متحكّم لا حجة له ، فكيف ادعُ اليقين بالشك ؟ »

وقائل خامس يقول : لست افعل هذا تقليدًا ، ولكنني قرأت علم الفلاسفة ، وأدركت حقيقة النبوة ، وإن حصلها يرجع الى الحكمة والمصلحة ، وان المقصود من تعبداتها : ضبط عوام الخلق وتقييدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال في الشهوات ، فإنا من العوام الجهال حتى ادخل في حجر التكليف ، وإنما انا من الحكماء . أتبع الحكمة وانا بصير بها ، مستغن فيها عن التقليد ا .

هذا انتهى ايمان من قرأ مذهب فلسفة الالهيين منهم ، وتعلم ذلك من كتب ابن سينا وابي نصر الفارابي .
وهؤلاء هم المتجملون بالاسلام .

وربما ترى الواحد منهم يقرأ القرآن ، ويحضر الجماعات والصلوات ، ويعظم الشريعة بلسانه ، ولكنه مع ذلك لا يترك شرب الخمر ، وانواعاً من الفسق والفجور ! واذا قيل له : « ان كانت النبوة غير صحيحة ، فلم تصلي ؟ » فرجاً يقول : « لرياضة الجسد ، ولعادة اهل البلد ، وحفظ المال والولد ! » وربما قال : « الشريعة صحيحة ، والنبوة حق ! » فيقال : « فلم تكرب الخمر ؟ » فيقول : « انما نهي عن الخمر لانها تورث العداوة والبغضا ، وانا بحكمتي محترز عن ذلك ، واني اقصد به تشجيع خاطري . » حتى ان ابن سينا ذكر في وصية له كتب فيها : انه عاهد الله تعالى على كذا وكذا ، وان يعظم الاوضاع الشرعية ، ولا يقصر في العبادات الدينية ، ولا يشرب تلهياً بل تداوياً وتشافياً . فكان انتهى حاله في صفا الايمان ، والتزام العبادات ، ان استثنى شرب الخمر لغرض التشافي . فهذا ايمان من يدعي الايمان منهم ، وقد اتخذ بهم جماعة ، وزادهم اتخذاعهم ضعف اعتراض المعارضين عليهم ، اذ اعتراضوا بمجاهدة علم الهندسة والمنطق ، وغير ذلك مما هو ضروري لهم ، على ما بيننا علته من قبل .

فلما رأيت اصناف الخلق من ضعف ايمانهم الى هذا الحد بهذه الاسباب ، ورأيت نفسي ملبة بكشف هذه الشبهة ، حتى كان اقضاح هؤلاء أيسر عندي من شربة ماء ، لكثرة خوضي في علومهم وطرقهم ، اعني طرق الصوفية والفلاسفة والتعليلية والمتوسمين من العلماء ، انقذح في نفسي ان ذلك متعين في هذا الوقت محتوم . فاذا تفنيتك الخلوة والعزلة ، وقد عمّ الدا . ، ومرض الاطباء . ، واشرف الخلق على الهلاك ؟

ثم قلت في نفسي : متى تشتغل انت بكشف هذه الغمة ، ولو
اشتغلت بدعوة الخلق ، عن طرقهم الى الحق ، لعادك اهل الزمان باجمعهم ؟
وانى تقاومهم ، فكيف تعايشهم ، ولا يتم ذلك الا بزمان مساعد ،
وسلطان متدين قاهر ؟

فترخصت بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة ، وتعللاً بالعجز
عن اظهار الحق بالحجة . فقدر الله تعالى ان حرك داعية سلطان الوقت من
نفسه ، لا بتحريك من خارج ، فامر امر الزام بالنهوض الى نيسابور ،
لتدارك هذه الفترة ، وبلغ الاكراه حداً كان ينتهي ، لو اصررت على
الخلاف ، الى حدّ الوحشة . فخطر لي ان سبب الرخصة قد ضعف ، فلا
ينبغي ان يكون باعك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة ، وطلب
عز النفس وصونها عن اذى الخلق . . .

فشاورت في ذلك جماعة من ارباب القلوب والمشاهدات ، فاتفقوا
على الاشارة بتك العزلة ، والخروج من الزاوية . وانضاف الى ذلك
منامات من الصالحين كثيرة متواترة ، تشهد بان هذه الحركة مبدأ خير
ورشد ، قدرها الله سبحانه على رأس هذه المئة ، وقد وعد الله سبحانه
باجيا . دينه على رأس كل مئة . فاستحسبكم الرجاء . وغلب حسن الظن
بسبب هذه الشهادات ، ويسر الله تعالى الحركة الى نيسابور ، للقيام بهذا
المهم في ذي القعدة سنة تسع وتسعين واربعمئة . وكان الخروج من بغداد
سنة ثمان وثمانين واربعمئة . . .

وانا اعلم اني ، وان رجعت الى نشر العلم ، فما رجعتا فان الرجوع
عود الى ما كان ، وكنت في ذلك الزمان انشر العلم الذي به يكسب
الجاه ، وادعو اليه بقولي وعملي ، وكان ذلك قصدي ونيتي . واما الآن ،
فادعو الى العلم الذي به يُترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبة الجاه ، هذا
هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي ، يعلم الله ذلك مني . وانا ابني ان

أصلح نفسي وغيري ، ولست ادري أصل الى مرادي ام أخترت دون
 غرضي . ولكني اومن ايمان يقين ومشاهدة انه لا حول ولا قوة الا
 بالله العلي العظيم ، واني لم أتحرك لكنه حركني ، واني لم اعمل ، لكنه
 استعملني . فأسأله ان يصلحني اولاً ، ثم يصلح بي ، ويهديني ، ثم يهدي
 بي ، وان يريني الحق حقاً ، ويرزقني اتباعه ، ويريني الباطل باطلاً ،
 ويرزقني اجتنابه .

ثم يحاول الغزالي اثبات النبوة ، والرد على خصومها ، وينتهي الرسالة بوصف
 العالم الحقيقي :

العالم الحقيقي

ان العالم الحقيقي لا يقارف معصية الا على سبيل الهفوة ، ولا
 يكون مصراً على المعاصي اصلاً ، اذ العلم الحقيقي ما يعرف ان المعصية
 سم مهلك ، وان الآخرة خير من الدنيا . ومن عرف ذلك ، لا يبيع
 الخير بما هو ادنى .

وهذا العلم لا يحصل بانواع العلوم التي يشتغل بها اكثر الناس .
 فلذلك لا يزيدهم ذلك العلم الا جراً على معصية الله تعالى . واما
 العلم الحقيقي ، فيزيد صاحبه خشية وخوفاً ، وذلك يحول بينه وبين
 المعاصي الا الهفوات التي لا ينفك عنها البشر في الفترات ، وذلك لا يدل
 على ضعف الايمان . فالؤمن مقلن تواب ، وهو بعيد عن الاصرار
 والاكباب . . .

ونسأل الله العظيم ، ان يجعلنا بمن آثره واجتنبه ، وارشده الى الحق
 وهداه ، والهमे ذكره حتى لا ينساه ، وعصمه عن شر نفسه حتى لم
 يؤثر عليه سواه ، واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد الا آياه .

انتهت الرسالة

معنى المذهب

لعلك تقول : كلامك ، في هذا الكتاب ، انقسم الى ما يطابق مذهب الصوفية ، والى ما يطابق مذهب الاشعرية وبعض المتكلمين ، ولا يفهم الكلام الا على مذهب واحد ، فما الحق من هذه المذاهب ؟ فان كان الكل حقاً ، فكيف يتصور هذا ؟ وان كان بعضه حقاً ، فما ذلك الحق ؟

فيقال لك : اذا عرفت حقيقة المذهب ، لا تضعك قط ، اذ الناس فيه فريقان :

فريق يقول : المذهب اسم مشترك لثلاث مراتب :

احداها ما يتعصب له في المباهاة والمناظرات .

والاخرى ما يسار به في التعليمات والارشادات .

والثالث ما يعتقد الانسان في نفسه ، مما انكشف له من النظريات .

ولكل كامل ثلاثة مذاهب ، بهذا الاعتبار

فاما المذهب ، بالاعتبار الاول ، فهو نمط الآباء والاجداد ، ومذهب

المعلم ، ومذهب اهل البلد الذي فيه النشوء . وذلك يختلف بالبلايا ،

والاقطار ، والمعلمين . فمن ولد في بلد المعتزلة ، او الاشعرية ، او الشفوية ،

او الحنفية ، انغرس في نفسه ، منذ صباه ، التعصب له ، والذب دونه ،

والذم لما سواه ومبدأ هذا التعصب حرص جماعة على طلب الرياسة ،

باستبجاع العوام ، ولا تنبث داعي العوام الا يجامع يحمل على التظاهر ،

فجعلت المذاهب في تفصيل الاديان جامعاً . فانقسم الناس فرقاً ، وتحركت

غوائل الحسد والمنافسة ، فاشتد تعصبهم ، واستحكم به تناصرهم . . .

المذهب الثاني ما ينطبق في الارشاد والتعليم ، على من جاءه مستفيداً ،

مسترشداً . وهذا لا يتعين على وجه واحد ، بل يختلف بحسب المسترشد ،

فينظر كل مسترشد بما يحتسله فهمه... فالمذهب ، بهذا الاعتبار ، يتغير ويختلف ، ويكون مع كل واحد ، على حسب ما يحتسله فهمه .
 المذهب الثالث ما يعتقدُه الرجل سرّاً ، بينه وبين الله عزّ وجل ، لا يطلع عليه غير الله تعالى ، ولا يذكره الا مع من هو شريكه في الاطلاع على ما اطلع ، او بلغ رتبته يقبل الاطلاع عليه ويفهمه...
 فهذا طريق فريق من الناس . واما الفريق الثاني ، وهم الاكثرون ، فيقولون : المذهب واحد ، هو المعتقد ، وهو الذي ينطق به تعليماً وارشاداً ، مع كل آدمي ، كيفما اختلفت حاله ، وهو الذي يتعصب له وهو اما مذهب الاشعري ، او المعتزلي ، او الكرامي ، او ابي مذهب من المذاهب . والاولون يوافقون هؤلاء على انهم لو سألوا عن المذهب انه واحد او ثلاثة ، لم يجوز ان يذكر انه ثلاثة ، بل يجب ان يقال انه واحد .

وهذا يبطل تعبك بالسؤال عن المذهب ، ان كنت عاقلاً . فان الناس متفقون على النطق بان المذهب واحد ، ثم يتفقون على التعصب لمذهب ابيهم ، او معلمهم ، او اهل بلدهم . ولو ذكر ذاكر مذهبه ، فما منفعتك فيه ، ومذهب غيره يخالفه ، وليس مع واحد منهم معجزة يترجح بها جانبه . فجانِبِ الالتفات الى المذاهب ، واطلب الحق بطريق النظر ، لتكون صاحب مذهب ، ولا تكن في صورة اعمى ، تقلد قائداً يرشدك الى طريق ، وحواليك الف مثل قائدك ينادون عليك بانه اهلكك ، واضلك عن سوا السبيل ...

ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات الا ما يشككك في اعتقادك الموروث ، لتنتدب للطلب ، فناهيك به نفعاً . اذ الشكوك هي الموصلة الى الحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال ، نعوذ بالله من ذلك .

علم الكلام

نقول ان فيه منفعة ، وفيه مضره . فهو باعتبار منفعته ، في وقت الانتفاع ، حلال ، او مندوب اليه ، او واجب ، كما يقتضيه الحال . وهو باعتبار مضرته ، في وقت الاستضرار ومجمله ، حرام .

اما مضرته فانارة الشبهات ، وتحريك العقائد ، وازالتها عن الجزم والتصحيح . فذلك مما يحصل في الابتداء . ورجوعها بالدليل مشكوك فيه ، ويختلف فيه الاشخاص . فهذا ضرره في الاعتقاد الحق .

وله ضرر اخر في تأكيد اعتقاد المتدعة للبدعة ، وتثيته في صدورهم ، بحيث تبتث دواعيهم ، ويشدد حرصهم على الاصرار عليه ، ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذي يثور من الجدل . . .

واما منفعته ، فقد يظن ان فائدته كشف الحقائق ، ومعرفتها على ما هي عليه ، وهيئات فليس في الكلام وفا . بهذا المطلب الشريف . ولعل التخطيط والتضليل فيه اكثر من الكشف والتعريف . وهذا اذا سمعته من محدث او حشوي ، ربما خطر بالكل ان الناس اعداء ما جهلوا . فاسمع هذا من خبر الكلام ، ثم قلاه بعد حقيقة الحجة ، وبعد التغافل فيه الى منتهى درجة المتكلمين ، وجاوز ذلك الى التعمق في علوم اخر تناسب نوع الكلام ، وتحقق ان الطريق الى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود . ولعمري ، لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف ، وايضاح لبعض الامور ، ولكن على الندور ، في امور جليلة ، تكاد تفهم قبل التعمق في صنعة الكلام

بل منفعته شي . واحد ، وهو حراسة العقيدة ، التي ترجمناها على العوام ، وحفظها عن تشويشات المتدعة ، بانواع الجدل فان العامي

ضعيف ، يستنزفه جدل المبتدع ، وان كان فاسداً ، ومعارضة الفاسد
بالفاسد تدفعه .

(الاحياء : ١ : ٧٢)

اعمل ، وانه غير مؤمن ا

يتكلم الفزالي عن سلوك سبيل السعادة الاخرية ، فبرى ان الناس في ذلك
اربع فرق ، وان الفرقة الرابعة ذهبت الى ان الموت عدم محض ، وان الطاعة
والمصيبة لا عاقبة لها ، فيخاطب من يبيل الى اعتقاد هذه الفرقة قائلاً :

وان كنت تظن صحته ظناً غالباً ، ولكن بقي في نفسك تجويز
صدق الانبياء والاولياء وجماهير العلماء ، ولو عن بعد ، فعقلك ايضاً
يتقاضاك سلوك طريق الأمن ، واجتناب مثل هذا الخطر الهائل . فانك
لو كنت في جوار ملك ، وامكنتك ان تتعاطى في واحد من محارمه ،
مثلاً ، عملاً من الاعمال ، تظن غالباً انه يقع منه موقع الرضى ، فيعطيك
عليه خامة وديناراً ، ويحتمل احتمالاً ، على خلاف الظن الغالب ، انه يقع
منه موقع السخط ، فينكل بك ، ويفضحك ، ويديم عقوبتك كل
عمرك ، اشار عليك عقلك بان الصواب ان لا تقتحم هذا الخطر . فانك
ان فعلت واصبت فزيته دينار ، لا يطول بقاؤه معك . وان اخطأت
فذكاه عظيم ، يبقى معك طول عمرك ، فليس تنفي ثمرة صوابه بغائلة
خطاه . . . ولهذا قال علي ، رضي الله تعالى عنه ، لمن كان يشاغبه ويماربه
في امر الاخرة : ان كان الامر على ما زعمت ، تخلصنا جميعاً ، وان كان
الامر كما قلت ، فقد هلكت ونجوت .

فلاسفة العرب

سلسلة دراسات ومختارات

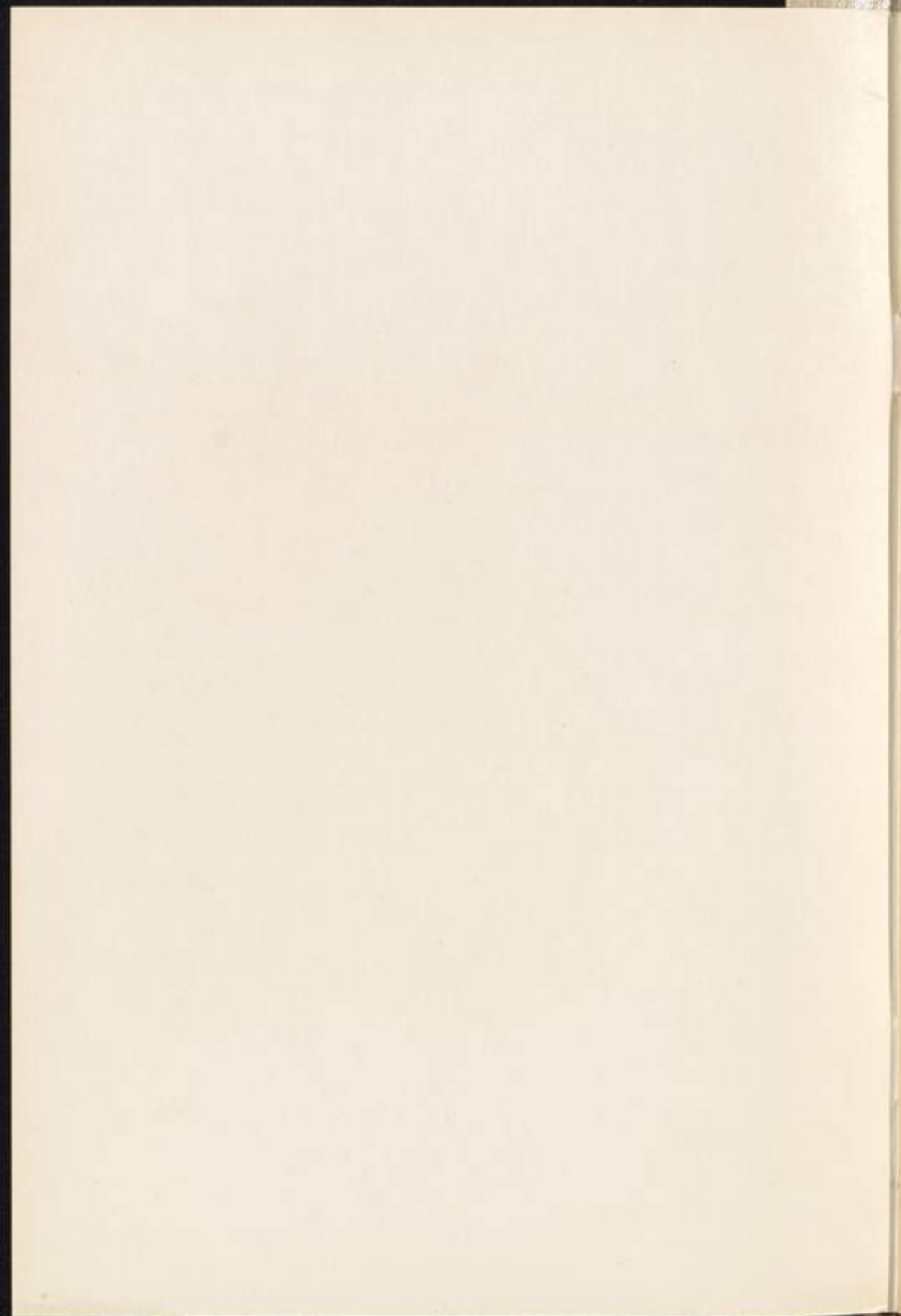
ظهر منها :

- ١ - ابن الفارض (طبعة ثانية)
- ٢ - ابو العلاء المعري (طبعة ثانية)
- ٣ - ابن خلدون (طبعة ثانية)
- ٤ - الغزالي : في جزئين (طبعة ثانية)
- ٥ - ابن طفيل
- ٦ - ابن رشد : في جزئين
- ٧ - اخوان الصفا .

للمؤلف ايضاً :

قربان الاغانى : معرب عن طاغور

تم طبع هذا الكتاب في الخامس عشر
من شهر تشرين الاول سنة ١٩٦٥





توزيع المكتبة الشرقية - مساحة النجمة - بيروت

العر: ١٠٠ غ.

Cornell University Library

B741 .Q98

v.4:pt.1

Falāsifat al-ʿArab / Yuhanna Qumayr.



3 1924 032 319 281

olin

B

741

Q98

v.4

pt.1